بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

الحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات، الذي هدانا لهذا، وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله، وصلوات الله وتسليماته على رحمته المهداة للعالمين، سيدنا وإمامنا وأسوتنا وحبيبنا محمد، و على آله وصحبه ومَن اتبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

أما بعد . .

فهذه الدراسة التي أقدمها اليوم تتحدث عن موضوع أعتبره غاية في الأهمية لأنه يعالج قضية اختلال النِّسب واضطراب الموازين - من الوجهة الشرعية - في تقدير الأمور والأفكار والأعمال، وتقديم بعضها على بعض، وأيها يجب أن يُقدّم، وأيها ينبغي أن يُؤخَّر، وأيها ترتيبه الأول، وأيها ترتيبه السبعين، في سلّم الأوامر الإلَهية والتوجيهات النبوية. ولا سيما مع ظهور الخلل في ميزان الأولويات عند المسلمين في عصرنا.

وقد كنت أطلقت عليه من قبل اسم (فقه مراتب الأعمال)، واخترت له اليوم ومنذ سنوات مصطلح (فقه الأولويات)؛ لأنه أشمل وأوسع وأدل على المقصود.

وتحاول هذه الدراسة أن تلقي الضوء على مجموعة من الأولويات التي جاء بها الشرع وقامت عليها الأدلة، عسى أن تقوم بدورها في تقويم الفكر، وتسديد المنهج، وتأصيل هذا النوع من الفقه. وحتى يهتدي بها العاملون في الساحة الإسلامية والمنظِّرون لهم، فيحرصوا على تمييز ما قدَّمه الشرع وما أخرَّه، وما شدَّد فيه وما يسَّره، وما عظَّمه الدين وما هوَّن من أمره. لعل في هذا ما يحد من غلو الغالين، وما يقابله من تفريط المفرِّطين، وما يُقرِّب وجهات النظر بين العاملين المخلصين.

ولا أزعم أن هذه دراسة كاملة مستوعبة، فهي فتح للباب، وتمهيد للطريق. وقد يوفق الله لها مَن يزيدها تعميقاً وتأصيلاً. ولكل مجتهد نصيب.

وأختم هذه الكلمات بما قاله نبي الله شعيب عليه السلام فيما حكاه القرآن عنه: (إن أريد إلا الإصلاح ما استطعت، وما توفيقي إلا بالله، عليه توكلت وإليه أنيب) (هود: 88).

الدوحة: في ربيع الآخر 1415 هـ الموافق (سبتمبر سنة 1994م)

الفقير إلى عفو ربه

يوسف القرضاوي

أولوية العمل في زمن الفتن

ومن الأولويات المطلوبة: أن يكون العمل في أزمان الفتن والمحن والشدائد التي تحيق بالأمة، فالعمل الصالح هنا دليل القوة في الدين، والصلابة في اليقين، والثبات على الحق. كما أن الحاجة إلى صالح العمل في هذا الزمن أشد من الحاجة إليه في سائر الأزمان.

ففي الصحيح: "المؤمن القوي خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف".

وأكد هذا قوله عليه الصلاة والسلام: "أفضل الجهاد كلمة حق عند سلطان جائر".

وقوله: "سيد الشهداء حمزة بن عبد المطلب، ورجل قام إلى إمام جائر، فأمره ونهاه فقتله".

"أفضل الشهداء: الذين يقاتلون في الصف الأول، فلا يلفتون وجوههم حتى يقتلوا، أولئك يتلبطون (أي يتمرغون) في الغرف العلا من الجنة، يضحك إليهم ربك، فإذا ضحك ربك إلى عبد في موطن فلا حساب عليه".

ومن أجل هذا كان فضل الثابت على دينه، في أزمان الفتن، وأيام المحن، حتى جعل بعض الأحاديث المستمسك بدينه في أيام الصبر، له أجر خمسين من بعض الصحابة.

فقد روى أبو داود والترمذي وابن ماجه في سننهم عن أبى أمية الشعباني قال: سألت أبا ثعلبة الخشني قال: قلت: يا أبا ثعلبة، كيف تقول في هذه الآية: (عليكم أنفسكم، لا يضركم من ضل إذا اهتديتم، إلى الله مرجعكم جميعا). قال: أما والله لقد سألت عنها خبيرا، سألت عنها رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: "ائتمروا بالمعروف، وانتهوا عن المنكر، حتى إذا رأيت شحا مطاعا، وهوى متبعا، ودنيا مؤثرة، وإعجاب كل ذي رأي برأيه، فعليك بنفسك، ودع عنك العوام، فإن من ورائكم أياما، الصبر فيهن مثل القبض على الجمر، للعامل فيهن مثل أجر خمسين رجلا يعملون مثل عمله" رواه أبو داود والترمذي، وقال: حديث حسن غريب، زاد أبو داود والترمذي: قيل: يا رسول الله، أجر خمسين رجلا منا أو منهم؟ قال: "بل أجر خمسين منكم".

والخطاب في الحديث لا يشمل السابقين الأولين من المهاجرين والأنصار، ومن أهل بدر، وأهل بيعة الرضوان، وأمثالهم، فهؤلاء لا

يطمع أحد بعدهم في بلوغ منزلتهم، ولكنه يستثير همم العاملين للإسلام اليوم في أجواء الفتن المتلاحقة، بما وعدهم الله على لسان رسوله من الأجر المضاعف: أجر خمسين في عصور النصر والازدهار. وقد تحقق ما نبأ به الرسول الكريم، فأصبح العامل لدينه، الصابر عليه، كالقابض على الجمر، فهو يضطهد في الداخل، ويحارب من الخارج، وتجتمع كل قوى الكفر على عداوته والكيد له، وإن اختلفت فيما بينها، والله من ورائهم محيط، ويستجيب عملاء الحكام وضعفاؤهم لكيد الأعداء في ضرب العاملين للإسلام، وتضييق الخناق عليهم، والتنكيل بهم، وتشريدهم كل مشرد، ما وجدوا إلى ذلك سبيلا.

وعن معقل بن يسار رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "عبادة في الهرج كهجرة إلي".

"الهرج" هو: الاختلاف والفتن، وقد فسر في بعض الأحاديث بالقتل، لأن الفتن والاختلاف من أسبابه، فأقيم المسبب مقام السبب.

وهنا نقطة ينبغي توضيحها، وهي: أن الأولوية والأفضلية في كثير من الأمور لا تكون أولوية مطلقة في الزمان والمكان والأشخاص والأحوال، وإن تفاوتت.

بل الغالب أنها تتفاوت بتفاوت المؤثرات الزمانية والبيئية والشخصية، ولهذا أمثلة كثيرة.

أفضل الأعمال الدنيوية

فقد اختلف علماؤنا: أي هذه الأعمال أفضل وأكثر مثوبة عند الله: الزراعة أم الصناعة أم التجارة؟

والذي دعاهم إلى هذا الاختلاف ما ورد من أحاديث في فضل كل منها.

ففي فضل الزراعة جاء حديث: "ما من مسلم يغرس غرسا أو يزرع زرعا فيأكل منه طير أو إنسان أو بهيمة إلا كان له به صدقة".

وفي فضل الصناعة جاء حديث: "ما أكل أحد طعاما قط خيرا من أن يأكل من عمل يده، وإن نبي الله داود عليه السلام كان يأكل من عمل يده".

وفي فضل التجارة جاء حديث: "التاجر الصدوق يحشر مع النبيين والصديقين والشهداء".

من أجل هذه الأحاديث وأمثالها وجد من العلماء من فضل واحدة من هذه الثلاث على سواها. ولكن المحققين من العلماء قالوا: لا

نفضل واحدة منهن بإطلاق، بل التفضيل يكون بحسب حاجة المجتمع إليها.

فحيث تقل الأقوات، ويكون المجتمع في حاجة إلى غذائه اليومي الذي لا عيش له إلا به، تكون الزراعة أفضل من غيرها، لحماية الأمة من الجوع، الذي هو بئس الضجيع، وتوفير الأمن الغذائي لها، وخصوصا إذا كان في الزراعة بعض المشقة والصعوبة، فالصبر عليها يكون من أفضل الأعمال.

وحيث تكثر الأقوات، وتتسع دائرة الزراعة، ويحتاج الناس إلى الصناعات المختلفة، للاستغناء عن الاستيراد من غير المسلمين من ناحية، ولتشغيل الأيدي العاملة من ناحية أخرى، ولحماية حرمات الأمة وحدودها ـ بالنسبة للصناعات الحربية ـ من ناحية ثالثة. ولتفادي نقص الكفاية الإنتاجية للأمة، من ناحية رابعة، هنا تكون الصناعة أفضل.

وحين تتوافر الزراعة والصناعة، ويحتاج الناس إلى من ينقل ما تنتجه هذه وتلك من البلاد إلى آخر، فهو وسيط جيد بين المنتج والمستهلك. وكذلك عندما يسيطر على السوق التجار الجشعون المحتكرون والمستغلون لحاجات جماهير الخلق، والمتلاعبون بأسعار السلع، فهنا تكون التجارة أفضل، وخصوصا إذا كان من الرجال الذين لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة.

وأحوج ما تحتاج إليه أمتنا في عصرنا، هو التكنولوجيا المتطورة، أن تدخل الأمة هذا العصر، وهي مسلحة بعلمه، غير غائبة ولا متخلفة، فلا تستطيع الأمة أن تنهض برسالة الإسلام الذي أكرمها الله به، وأتم عليها به النعمة، وأن تحمل دعوته إلى العالمين، وهي عالة على غيرها في أدوات العصر، وأسلحة العصر.

ولابد أن تطور مناهجها ونظمها التعليمية بما يحقق هذه الغاية، ويعيد إليها مكانتها العالمية، يوم كانت لها حضارة متميزة، عميقة الجذور، باسقة الفروع، وأن تستشرف المستقبل، وتنظر إليه من خلال ما يطلبه منها الإسلام، وما ينشده أهله، وما يتطلع إليه العالم من المعرفة به عقيدة ونظاما وحضارة.

إن تحصيل هذه التكنولوجيا المتقدمة والتفوق فيها، وفي العلوم الموصلة إليها، أصبح فريضة وضرورة، فريضة يوجبها الدين، وضرورة يحتمها الواقع. وهي في مقدمة الأولويات للأمة اليوم.

إلى أعلى

ومثل ذلك يقال بالنسبة لأفضل العبادات بالنسبة للفرد.

فقد اختلف العلماء في ذلك اختلافا بعيدا، وتعددت أقوالهم وتباينت.

والقول المرجح عندي ما ذكره الإمام ابن القيم، وهو أن ذلك يختلف من شخص إلى آخر، ومن وقت إلى آخر، ومن مكان إلى آخر، ومن حال إلى آخر.

يقول الإمام ابن القيم في "المدارج":

"ثم أهل مقام "إياك نعبد" لهم في أفضل العبادة وأنفعها وأحقها بالإيثار والتخصيص أربع طرق. فهم في ذلك أربعة أصناف:

الصنف الأول: عندهم أنفع العبادات وأفضلها: أشقها على النفوس وأصعبها.

قالوا: لأنه أبعد الأشياء عن هواها، وهو حقيقة التعبد.

قالوا: والأجر على قدر المشقة. ورووا حديثا لا أصل له: "أفضل الأعمال أحمزها" أي أصعبها وأشقها.

وهؤلاء: هم أهل المجاهدات والجور على النفوس.

قالوا: وإنما تستقيم النفوس بذلك. إذ طبعها الكسل والمهانة، والإخلاد إلى الأرض. فلا تستقيم إلا بركوب الأهوال وتحمل المشاق.

الصنف الثاني، قالوا: أفضل العبادات التجرد، والزهد في الدنيا، والتقلل منها غاية الإمكان، واطراح الاهتمام بها، وعدم الاكتراث بكل ما هو منها. ثم هؤلاء قسمان:

فعوامهم: ظنوا أن هذا غاية، فشمروا إليه وعملوا عليه، ودعوا الناس إليه، وقالوا: هو أفضل من درجة العلم والعبادة، فرأوا الزهد في الدنيا غاية كل عبادة ورأسها.

وخواصهم: رأوا هذا مقصودا لغيره، وأن المقصود به عكوف القلب على الله، وجمع الهمة عليه، وتفريغ القلب لمحبته، والإنابة إليه، والتوكل عليه، والاشتغال بمرضاته. فرأوا أن أفضل العبادات في الجمعية على الله، ودوام ذكره بالقلب واللسان، والاشتغال بمراقبته، دون كل ما فيه تفريق للقلب وتشتيت له.

ثم هؤلاء قسمان: فالعارفون المتبعون منهم: إذا جاء الأمر والنهي بادروا إليه ولو فرقهم وأذهب جمعيتهم. والمنحرفون

منهم يقولون: المقصود من العبادة جمعية القلب على الله. فإذا جاء ما يفرقه عن الله لم يلتفت إليه.

وربما يقول قائلهم:

يطالب بالأوراد من كان غافلا فكيف بقلب كل أوقاته ورد؟

ثم هؤلاء أيضا قسمان: منهم من يترك الواجبات والفرائض لجمعيته. ومنهم من يقوم بها ويترك السنن والنوافل، وتعلم العلم النافع لجمعيته.

وسأل بعض هؤلاء شيخا عارفا، فقال: إذا أذن المؤذن وأنا في جمعيتي على الله، فإن قمت وخرجت تفرقت، وإن بقيت على حالي بقيت على جمعيتي، فما الأفضل في حقي؟

فقال: إذا أذن المؤذن وأنت تحت العرش فقم، وأجب داعي الله، ثم عد إلى موضعك. وهذا لأن الجمعية على الله حظ الروح والقلب، وإجابة الداعي حق الرب. ومن آثر حظ روحه على حق ربه فليس من أهل "إياك نعبد".

الصنف الثالث: رأوا أن أنفع العبادات وأفضلها: ما كان فيه نفع متعد، فرأوه أفضل من ذي النفع القاصر. فرأوا خدمة الفقراء، والاشتغال بمصالح الناس وقضاء حوائجهم، ومساعدتهم بالمال والجاه والنفع أفضل. فتصدوا له وعملوا عليه، واحتجوا بقول النبي صلى الله عليه وسلم: "الخلق كلهم عيال الله، وأحبهم إليه أنفعهم حيلة" رواه أبو يعلى.

واحتجوا بأن عمل العابد قاصر على نفسه، وعمل النفاع متعد إلى الغير. وأين أحدهما من الآخر؟

قالوا: ولهذا كان فضل العالم على العابد كفضل القمر على سائر الكواكب.

قالوا: وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لعلي بن أبي طالب رضي الله عنه: "لأن يهدي الله بك رجلا واحدا خير لك من حمر النعم"، وهذا التفضيل إنما هو للنفع المتعدي. واحتجوا بقوله صلى الله عليه وسلم: "من دعا إلى هدى كان له من الأجر مثل أجور من اتبعه، من غير أن ينقص من أجورهم شيء"، واحتجوا بقوله صلى الله عليه وسلم: "إن الله وملائكته يصلون على معلمي الناس الخير"، وبقوله صلى الله عليه وسلم: "إن العالم ليستغفر له من في السموات ومن في الأرض، حتى الحيتان في البحر، والنملة في جحرها".

واحتجوا بأن الأنبياء إنما بعثوا بالإحسان إلى الخلق وهدايتهم، ونفعهم في معاشهم ومعادهم. لم يبعثوا بالخلوات والانقطاع عن

الناس والترهب. ولهذا أنكر النبي صلى الله عليه وسلم على أولئك النفر الذين هموا بالانقطاع للتعبد، وترك مخالطة الناس. ورأى هؤلاء التفرق في أمر الله، ونفع عباده، والإحسان إليهم، أفضل من الجمعية عليه بدون ذلك.

الصنف الرابع، قالوا: إن أفضل العبادة: العمل على مرضاة الرب في كل وقت بما هو مقتضى ذلك الوقت ووظيفته، فأفضل العبادات في وقت الجهاد: الجهاد، وإن آل إلى ترك الأوراد، من صلاة الليل وصيام النهار. بل ومن ترك إتمام صلاة الفرض، كما في حالة الأمن.

والأفضل في وقت حضور الضيف مثلا: القيام بحقه، والاشتغال به عن الورد المستحب. وكذلك في أداء حق الزوجة والأهل.

والأفضل في أوقات السحر: الاشتغال بالصلاة والقرآن، والدعاء والذكر والاستغفار.

والأفضل في وقت استرشاد الطالب، وتعليم الجاهل: الإقبال على تعليمه والاشتغال به.

والأفضل في أوقات الأذان: ترك ما هو فيه من ورده، والاشتغال بإجابة المؤذن.

والأفضل في أوقات الصلوات الخمس: الجد والنصح في إيقاعها على أكمل الوجوه، والمبادرة إليها في أول الوقت، والخروج إلى الجامع. وإن بعد كان أفضل.

والأفضل في أوقات ضرورة المحتاج إلى المساعدة بالجاه، أو البدن، أو المال: الاشتغال بمساعدته، وإغاثة لهفته، وإيثار ذلك على أورادك وخلوتك.

والأفضل في وقت قراءة القرآن: جمعية القلب والهمة على تدبره وتفهمه، حتى كأن الله تعالى يخاطبك به، فتجمع قلبك على فهمه وتدبره، والعزم على تنفيذ أوامره أعظم من جمعية قلب من جاءه كتاب من السلطان على ذلك.

والأفضل في وقت الوقوف بعرفة: الاجتهاد في التضرع والدعاء والذكر دون الصوم المضعف عن ذلك.

والأفضل في أيام عشر ذي الحجة: الإكثار من التعبد، لا سيما التكبير والتهليل والتحميد. فهو أفضل من الجهاد غير المتعين.

والأفضل في العشر الأخير من رمضان: لزوم المسجد فيه والخلوة والاعتكاف دون التصدي لمخالطة الناس والاشتغال بهم،

حتى إنه أفضل من الإقبال على تعليمهم العلم، وإقرائهم القرآن، عند كثير من العلماء.

والأفضل في وقت مرض أخيك المسلم أو موته: عيادته، وحضور جنازته وتشييعه، وتقديم ذلك على خلوتك وجمعيتك.

والأفضل في وقت نزول النوازل وأذاة الناس لك: أداء واجب الصبر مع خلطتك بهم، دون الهرب منهم. فإن المؤمن الذي يخالط الناس ليصبر على أذاهم أفضل من الذي لا يخالطهم ولا يؤذونه.

والأفضل خلطتهم في الخير. فهي خير من اعتزالهم فيه، واعتزالهم في الشر، فهو أفضل من خلطتهم فيه. فإن علم أنه إذا خالطهم أزاله أو قلله فخلطتهم حينئذ أفضل من اعتزالهم.

فالأفضل في كل وقت وحال: إيثار مرضاة الله في ذلك الوقت والحال. والاشتغال بواجب ذلك الوقت ووظيفته ومقتضاه.

وهؤلاء هم أهل التعبد المطلق. والأصناف قبلهم أهل التعبد المقيد. فمتى خرج أحدهم عن النوع الذي تعلق به من العبادة وفارقه يرى نفسه كأنه قد نقص وترك عبادته. فهو يعبد الله على وجه واحد. وصاحب التعبد المطلق ليس له غرض في تعبد بعينه يؤثره على غيره، بل غرضه تتبع مرضاة الله تعالى أين كانت. فمدار تعبده عليها. فهو لا يزال متنقلا في منازل العبودية، كلما رفعت له منزلة عمل على سيره إليها، واشتغل بها حتى تلوح له منزلة أخرى. فهذا دأبه في السير حتى ينتهي سيره. فإن رأيت العلماء رأيته معهم، وإن رأيت العباد رأيته معهم، وإن رأيت المجاهدين رأيته معهم، وإن رأيت الذاكرين رأيته معهم، وإن رأيت المتصدقين المحسنين رأيته معهم، وإن رأيت أرباب الجمعية وعكوف القلب على الله رأيته معهم، فهذا هو العبد المطلق، الذي لم تملكه الرسوم، ولم تقيده القيود، ولم يكن عمله على مراد نفسه، وما فيه لذتها وراحتها من العبادات. بل هو على مراد ربه، ولو كانت راحة نفسه ولذتها في سواه. فهذا هو المتحقق (إياك نعبد وإياك نستعين) حقا، القائم بهما صدقا، ملبسه ما تهيأ، ومأكله ما تيسر، واشتغاله بما أمر الله به في كل وقت بوقته، ومجلسه حيث انتهى به المكان ووجده خاليا، لا تملكه إشارة، ولا يتعبده قيد، ولا يستولي عليه رسم، حر مجرد، دائر مع الأمر حيث دار، يدين بدين الآمر أنى توجهت ركائبه، ويدور معه حيث استقلت مضاربه، يأنس به كل محق، ويستوحش منه كل مبطل، كالغيث حيث وقع نفع. وكالنخلة لا يسقط ورقها، وكلها منفعة حتى شوكها، وهو موضع الغلظة منه على المخالفين لأمر الله، والغضب إذا انتهكت محارم الله، فهو لله وبالله ومع الله، قد صحب الله بلا خلق، وصحب الناس بلا نفس. بل إذا كان مع الله عزل الخلائق عن البين، وتخلى عنهم، وإذا كان مع خلقه عزل نفسه من الوسط وتخلى عنها. فواها له! ما أغربه بين الناس! وما أشد وحشته

منهم! وما أعظم أنسه بالله وفرحه به، وطمأنينته وسكونه إليه!! والله المستعان، وعليه التكلان".

أولوية المعركة الفكرية

ومما يجب لفت الأنظار إليه في مجال الإصلاح: تقديم كل ما يتعلق بتقويم الفكر، وتصحيح التصور، وتصويب منهج النظر والعمل. فهذا بلا ريب هو الأساس المكين لكل إصلاح يرتجى. إذ من غير المعقول أن يستقيم العمل على منهج سليم، والفكر غير مستقيم. كما قال الشاعر:

متى يستقيم الظل والعود أعوج؟

فمن ساء تصوره لأمر ما، فالمتوقع أن يسوء سلوكه في شأنه، فإن السلوك أثر للتصور، حسنا أو قبحا.

ومن هنا كانت المعركة الفكرية ـ التي تعنى بتصحيح الأفكار المعوجة، والمفاهيم المغلوطة ـ لها الأولوية وحق التقديم على غيرها. وهو ضرب من "الجهاد الكبير" بالقرآن، الذي ذكرته سورة الفرقان المكية، ومن الجهاد باللسان والبيان، الذي ذكره الحديث النبوي: "جاهدوا المشركين بأموالكم وأنفسكم وألسنتكم".

المعركة الفكرية داخل الساحة الإسلامية

وللمعركة الفكرية مجالان أساسيان:

الأول: خارج الساحة الإسلامية، مع الملاحدة والمنصرين والمستشرقين الذين يهاجمون الإسلام: عقيدة وشريعة، وتراثا وحضارة، ويحاربون أي نهضة أو بعث على أساس الإسلام.

والثاني: داخل الساحة الإسلامية نفسها، لتصحيح الاتجاه في فصائل العمل الإسلامي، وترشيد مسيرته، وتصويب حركته، حتى تسير في الطريق الصحيح للهدف الصحيح. وسنقصر الحديث عليه، فإن إصلاح الداخل هو الأساس، وله الأولوية.

فما لا شك فيه أن لدينا تيارات عدة، منها:

التيار الخرافي

التيار أو التوجه الخرافي، الذي يقوم على أسس أو خصائص يتفرد بها، منها:

أ. الخرافة في الاعتقاد.

ب. الابتداع في العبادة.

ج.الجمود في الفكر

د. التقليد في الفقه

هـ. السلبية في السلوك

و. المسايرة أو المداهنة في السياسة

التيار الحرفي

وهناك التيار أو التوجه الحرفي، وهذا له ـ رغم تشدده في أمر الدين ودفاعه عنه ـ خصائص غلبت على أكثر أتباعه تميزه أيضا، منها:

أ. الجدلية في العقيدة

ب. الشكلية في العبادة

ج. الظاهرية في الفقه

د. الجزئية في الاهتمام

هـ. الجفاف في الروح

و. الخشونة في الدعوة

ز. الضيق بالخلاف .

تيار الرفض والعنف

وهناك التوجه الذي يقوم على رفض المجتمع كله بجميع مؤسساته، وله ـ رغم تميز جل أفراده بالحماس والإخلاص ـ خصائصه أيضا، منها:

أ. الشدة والصرامة في الالتزام بالدين

ب. الاعتزاز بالذات اعتزازا يؤدي إلى نزعة الاستعلاء على المجتمع.

ج. سوء الظن بالآخرين جميعا

د. ضيق الأفق في فهم الدين، وفهم الواقع، وفهم السنن الكونية والاجتماعية.

هـ. استعجال الأشياء قبل أوانها

و. المسارعة إلى التكفير بغير تحفظ.

ز. اتخاذ القوة سبيلا إلى تحقيق الأهداف.

التيار الوسطي

وهناك التيار الوسطي، الذي يقوم على التوازن والوسطية في فهم الدين والحياة والعمل لتمكين الدين، وله خصائص أيضا تميزه عن سواه، منها تأكيده وتركيزه على المبادئ التالية:

أ. فقهه للدين فقها يتميز بالشمول والاتزان والعمق.

ب. فقهه لواقع الحياة دون تهوين ولا تهويل: واقع المسلمين، وواقع أعدائهم.

ج. فقه سنن الله وقوانينه التي لا تتبدل، وخصوصا سنن الإجماع البشري.

د. فقه مقاصد الشريعة وعدم الجمود على ظواهرها.

هـ. فقه الأولويات، وهو مرتبط بفقه الموازنات.

و. فقه الاختلاف وأدبه مع الفصائل الإسلامية الأخرى (التعاون في المتفق عليه والتسامح في المختلف فيه).

ز. الجمع بين السلفية والتجديد (أو بين الأصالة والمعاصرة).

ح. الموازنة بين ثوابت الشرع ومتغيرات العصر.

ط. الإيمان بأن التغيير الفكري والنفسي والخلقي أساس كل تغيير حضاري.

ي. تقدير الإسلام مشروعا حضاريا متكاملا، لبعث الأمة، وإنقاذ البشرية من الفلسفات المادية المعاصرة.

ك. اتخاذ منهج التيسير في الفتوى، والتبشير في الدعوة.

ل. إبراز القيم الاجتماعية والسياسية في الإسلام، مثل: الحرية والكرامة والشورى والعدالة الاجتماعية وحقوق الإنسان.

م. الحوار بالحسنى مع الآخر، أي مع المخالفين من غير المسلمين، أو من المسلمين المغزوين عقليا، والمهزومين روحيا.

ن. اتخاذ الجهاد سبيلا للدفاع عن حرمات المسلمين وديار الإسلام.

وهذا هو التيار الذي نؤمن به، وندعو إليه، ونعتبر أنه هو المعبر الحقيقي عن الإسلام، كما أنزله الله في كتابه، وكما هدى إليه رسوله في سنته وسيرته، وكما فهمه وطبقه الراشدون المهديون من أصحابه، وكما فقهه التابعون لهم بإحسان من خير قرون هذه الأمة.

إلى الفهرس

واجب تيار الوسطية

ولا مراء في أن هذا التيار هو موطن الأمل، ومعقد الرجاء في الغد، وعليه أن يبذل جهودا مكثفة في إبراز دعوته، وتربية أنصاره، وإقناع خصومه، والحوار مع معارضيه، والاجتهاد في الإفلات من الشباك التي تنصب له لإيقاعه فيما لا يريد ولا يحب.

ومما أصبح معلوما الآن بالشواهد الوفيرة: أن القوى العادية ـ في الداخل والخارج ـ تخاف هذا التيار أكثر من غيره، بل تكرهه وتكن له العداء أكثر من التيارات الأخرى.

فقد كانوا من قبل يحذرون من تيارات التشدد والعنف. أما اليوم فقد ظهرت نغمة جديدة تقول: احذروا الإسلام المعتدل! فهو أشد خطرا من غيره. إن التيارات الأخرى قصيرة العمر لن تدوم طويلا. أما هذا فهو الذي يستمر ويدوم. واعتداله ـ في زعمهم ـ ليس مأمونا. إنه يبدأ معتدلا ثم يتطرف، لأن التطرف كامن في الإسلام ذاته كما يقولون!

ومن هنا بدأوا يخوفون من خطر الإسلام الزاحف، ويسمونه "الخطر الأخضر" ويجعلون منه عدوا جديدا، بدل "الخطر الأحمر" الذي زال بزوال الشيوعية من أوروبا كلها. وهو ما رد عليه المنصفون منهم مؤكدين أن الخطر الإسلامي وهم لا حقيقة.

ولابد لتيار الوسطية أن يواجه هؤلاء ويكشف تزييفهم، ويحاور المعتدلين من قومهم.

كما لابد له من مواجهة آخرين من فروخهم وتلاميذهم في داخل دار الإسلام نفسها، وممن يحملون أسماء المسلمين، ولكنهم يعادون بكل قوة المشروع الحضاري للإسلام، ويقفون في صف أعداء الأمة ودينها. وهم الذين وصفهم الرسول الكريم في حديث حذيفة المتفق عليه بأنهم: "دعاة على أبواب جهنم، من أجابهم إليها قذفوه فيها" قيل: صفهم لنا يا رسول الله، قال: "هم من جلدتنا، ويتكلمون بألسنتنا".

لهذا كانت ضرورة مواجهة هؤلاء الذين يفسدون فكر الأمة، ويضللونها عن حقيقتها وعن أصالة هويتها، ويضعون لها السم الزعاف، في العسل الحلو، والدسم المشتهى، مما يقرأ أو يسمع أو يشاهد، فيعمل في عقول أبناء الأمة ما تعمل الأوبئة القتالة في الأجسام.

إن هؤلاء "المستغربين" من قومنا يحملون أفكار الاستعمار، بعد أن حمل الاستعمار عصاه ورحل عن ديارنا، والذين يتبنون أخبث مفاهيم المستشرقين والمنصرين، الذين لم يخلص أكثرهم لحضارتنا يوما، ومن أخلص منهم لم يملك أدوات الفهم الصحيح لهذه الحضارة ومصادرها وتراثها، وأهمها اللغة وتذوقها.

إن معركتنا الحقيقية في داخل أرضنا يجب أن تكون مع هؤلاء "الغلاة" حقا، من العلمانيين وبقايا الماركسيين، الذين لبسوا اليوم لبوس الليبرالية الغربية، والذين جندوا أقلامهم وأسلحتهم كلها لشن الحرب على صحوة الإسلام، وانبعاثه الجديد، وتشويه دعوته، والتشويش على دعاته، واختراع مصطلحات جديدة لتنفير الناس منه، مثل "الإسلام السياسي" أو "الأصولية"، والإيقاع بينهم وبين الأنظمة الحاكمة، لاستنزاف قوى البلاد في صراعات دامية لا تكاد تنتهي إلا لتبدأ من جديد، في صورة أخرى، وباسم آخر.

إن أي تحويل للمعركة عن هذا المسار، ومحاولة اختراع أعداء من الإسلاميين أنفسهم، ممن يخالفون بعض الناس في فروع الفقه، أو حتى في فروع العقيدة، أو في أولويات العمل، أو في المواقف من القضايا الجزئية المختلفة .. يعتبر غفلة شديدة عن حقيقة العدو الذي يتربص بالجميع الدوائر، ويريد أن يضرب بعضهم ببعض، وهو يتفرج عليهم، ثم يضربهم جميعا في النهاية الضربة القاصمة. فمن فعل ذلك من الدعاة إلى الإسلام عن جهل فهي مصيبة، لأن الجهل بمثل هذه القضية خطر كبير، ومن فعل ذلك عن علم وقصد فهي مصيبة أعظم، وخطرها أكبر، لأنها تكون بمثابة الخيانة للإسلام وأمته وصحوته. ورحم الله الشاعر الذي قال:

وإن كنت تدري فالمصيبة أعظم! إذا كنت لا تدري فتلك مصيبة

وأعتقد أن على تيار الوسطية واجبا كبيرا، يجب أن يسعى إليه، ويحرص عليه، ويجاهد من أجله، وهو العمل بصدق وإخلاص لتجميع الصف الإسلامي ـ صف العاملين للإسلام ـ على الأصول التي لا ينبغي الخلاف عليها، أي على أركان العقيدة الستة: الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والقدر، وعلى الأركان العملية الخمسة: الشهادتين، وإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، وصوم رمضان، وحج البيت، وعلى أصول فضائل وأمهات الأخلاق، وعلى اجتناب أصول الرذائل والمحرمات، وبخاصة الكبائر والموبقات.

وبحسبنا اللقاء الإجمالي على هذه الكليات، ولا بأس أن نختلف في الجزئيات والتفاصيل، لا بأس أن نختلف في الفروع، ونختلف في المواقف، ونختلف في الاجتهادات، فهذا اختلاف تقتضيه طبيعة الدين، وطبيعة البشر، وطبيعة الكون والحياة، كما فصلت ذلك في كتابي "الصحوة الإسلامية بين الاختلاف المشروع والتفرق المذموم".

وقد ذكرت في أكثر من كتاب لي: أنه لا مانع من أن تتعدد الجماعات العاملة للإسلام، مادام تعددها تنوع وتخصص، لا تعدد تضارب وتناقض، فتعدد التنوع يؤدي إلى مزيد من الإثراء والنماء، وتعدد التناقض إنما يؤدي إلى التآكل والفناء.

لابد من جهد يبذل لتجميع العاملين لخدمة الإسلام، ونصرة دعوته، وتحكيم شريعته، وتوحيد أمته: جهد فكري، وجهد عملي، لتقريب الشقة، وزرع الثقة، وغرس روح التسامح وحسن الظن، وتنقية الأنفس من آفات العجب والغرور واتهام الآخرين واحتقارهم. "بحسب امرئ من الشر أن يحقر أخاه المسلم".

وفي رأيي أن هذا العمل من الأولويات المهمة والمقدمة في الساحة الإسلامية اليوم. وإذا لم ينتبه الإسلاميون لخطر التمزق الذي يعيشونه، فسيؤكلون جميعا، ستفترسهم المخالب والأنياب الحادة للقوى المعادية للإسلام وأمته، سيضربون تيارا بعد تيار، ومجموعة بعد مجموعة، حتى يقضى عليهم جميعا.

وإذا كنا لا نملك اليوم القدرة على تجميع قوى أمتنا الكبرى من المحيط إلى المحيط، فلنجتهد ـ على الأقل ـ في تجميع قوى الفصائل الكبرى في الصحوة الإسلامية، القابلة للحوار والتفاهم، وذلك بإزالة النتوءات، وتقليص التطرفات، وتقريب المفاهيم، وتنسيق المواقف، والوقوف صفا واحدا في القضايا المصيرية، يتعاون الجميع في المتفق عليه، ويتسامحون في المختلف فيه، فهذا التفاهم والتعاون والتجمع: فريضة دينية، وضرورة حيوية، فإذا لم تجمعنا الفكرة الواحدة، فلتجمعنا المحنة المشتركة. على نحو ما قال شوقي:

إن المصائب يجمعن المصابين! فإن يك الجنس يا ابن الطلح فرقنا

إلى الفهرس

التطبيق القانوني للشريعة أم التربية والإعلام؟

ومما وقع فيه الخلل هنا: أن معظم العاملين في الحقل الإسلامي ـ وبخاصة المتحمسون منهم ـ أعطوا عناية كبرى لقضية ما أسموه

"تطبيق الشريعة الإسلامية" يعنون الجانب القانوني من الشريعة، ولا سيما في العقوبات: أي الحدود والقصاص والتعازير.

وهذا الجانب جزء من الإسلام ولا ريب، ولا يجوز إغفاله أو الإعراض عنه.

ولكن المبالغة في المطالبة به والحديث عنه، واعتباره رأس الأمر وعموده وذروة سنامه، كان له آثار سيئة على التفكير الإسلامي، والعمل الإسلامي، وآثار أخرى على أفكار الناس العاديين، واستغل ذلك خصوم الإسلام وشريعته ودعوته. وطالما قلت: إن القوانين وحدها لا تصنع المجتمعات، ولا تبنى الأمم، إنما تصنع المجتمعات والأمم: التربية والثقافة، ثم تأتي القوانين سياجا وحماية.

فالواجب ـ إذن ـ أن نعطي هذه القضية حجمها الحقيقي من الفكر والعمل، وأن تعطى مساحات مناسبة للاشتغال والإعداد والمطالبة بـ "تربية إسلامية متكاملة معاصرة" تتابع الطفل المسلم من سن الحضانة، وتستمر معه، حتى يتخرج من الجامعة، مستخدمة المناهج الملائمة، والأساليب المشوقة، والوسائل السمعية والبصرية، والتكنولوجيا المتطورة، بما يحقق ضرورة الدين للحياة، ويؤكد كمال الإسلام وعدالة أحكامه، وإعجاز كتابه، وعظمة رسوله، وتوازن حضارته، وخلود أمته.

وليست هذه التربية مطلوبة في درس الدين أو التربية الإسلامية فحسب، بل هي مطلوبة، في كل الدروس والمواد العلمية والأدبية، دون افتعال. فلتلتمس في العلوم والمواد الاجتماعية واللغة والأدب، وتلتمس في الأنشطة المدرسية، وفي الجو العام، حتى يساعد على تنشئة جيل مسلم مؤمن بالله معتز بدينه وأمته، متكامل النماء بروحه وعقله وجسمه ووجدانه، مخلص لربه، خادم لوطنه، متسامح مع غيره، عامل لخير الإنسانية جمعاء.

ولابد من الوقوف في وجه الفلسفات والمناهج المادية واللادينية المستوردة، الفارغة من روح الدين، والمناقضة لفلسفة الإسلام عن الله وعن الإنسان، وعن الحياة والعالم، وعن الدين والدنيا.

كما يجب أن تعطى مساحات أخرى مناسبة كذلك، لقضية الإعلام والثقافة، التي غدت من أشد المؤثرات في حياتنا الفردية والاجتماعية، وأصبحت أدوات الإعلام هي التي تصنع العقول والميول والأذواق والاتجاهات الفكرية والنفسية عند جماهير الناس.

فلا يجوز بحال من الأحوال أن تترك هذه في أيدي من لا يؤمنون بالإسلام مرجعا أعلى لحياة الإنسان المسلم وحياة الجماعة المسلمة، في التعامل والفكر والسلوك.

ولابد من العمل على محورين اثنين متكاملين:

الأول: إعداد إعلاميين إسلاميين في كل المجالات، وعلى كل المستويات، قادرين على أن يمثلوا الإسلام، ويمثلوا العصر بإمكاناته الهائلة.

ويدخل في ذلك أهل الفنون المختلفة من غناء ومسرح وتمثيل.

وهنا نحتاج إلى من يكتب النص، ومن يحوله إلى حوار (سيناريو)، ومن يخرجه ويمثله، ومن يصوره، ومن ينفذه.

وهذه أمور ليست بالسهلة، وفيها عقبات شرعية وغير شرعية. يجب العمل على تذليلها، ولو بقبول المرحلية فيها، ووضع خطة محددة الأهداف، بينة الوسائل، معروفة المراحل، لاستكمال الناقص، وإتمام البناء.

الثاني: محاولة كسب الإعلاميين والفنانين الحاليين، فلاشك أن فيهم من المسلمين المصلين الصائمين، ولكنهم ـ بحكم تربيتهم وثقافتهم ـ يحسبون أن ما يصنعونه ليس مخالفا للإسلام، ولا يجلب سخط الله عليهم، وربما عرف بعضهم شيئا من ذلك، ولكن العيشة التي يعيش فيها، والحياة التي تعودها، غلبت عليه.

والواجب هنا بذل الجهد مع هؤلاء، حتى يتفقهوا في دينهم، ويتوبوا إلى ربهم، وينضموا إلى قافلة الداعين إلى الإسلام وفضائله.

ولقد عرفت السنوات الأخيرة توبة عدد من الفنانين، وعدد أكبر من الفنانات، ولكن أكثرهم اعتزلوا الفن وأهله، نجاة بأنفسهم، وفرارا بدينهم.

وأولى من ذلك أن يثبتوا في هذا المعترك الصعب، وهذا الميدان الشاق، وأن يقولوا ما قال عمر بن الخطاب بعد إسلامه: "والله لا يبقى مكان كنت أعلن فيه الجاهلية إلا أعلنت فيه الإسلام". وهذا لا يكون إلا بالتعاون بين الجميع، والتغلب على المعوقات وما أكثرها.

تمهيد

ومن الأولويات المهمة في مجال الإصلاح: العناية ببناء الفرد قبل بناء المجتمع، أو بتغيير الأنفس قبل تغيير الأنظمة والمؤسسات، والأفضل أن نستخدم التعبير القرآني وهو تغيير ما بالأنفس: (إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم)، فهذا أساس كل إصلاح أو تغيير أو بناء اجتماعي: البداءة بالفرد، فهو أساس البناء كله، إذ لا أمل في إقامة بناء سليم متين، إذا كانت لبناته واهية أو فاسدة.

والإنسان الفرد هو اللبنة الأولى في جدار المجتمع، ولهذا كان كل جهد يبذل لتكوين الإنسان المسلم الحق وتربيته ـ تربية إسلامية كاملة ـ له الأولوية على ما سواه. لأنه مقدمة ضرورية لكل أنواع البناء والإصلاح، وهذا هو تغيير ما بالنفس.

إن بناء الإنسان الفرد الصالح هو مهمة الأنبياء الأولى، ومهمة خلفاء الأنبياء وورثتهم من بعدهم.

وإنما يبنى الإنسان أول ما يبنى بالإيمان، أي بغرس العقيدة الصحيحة في قلبه، التي تصحح له نظرته إلى العالم وإلى الإنسان، وإلى الحياة وإلى رب العالم، وبارئ الإنسان، وواهب الحياة، وتعرف الإنسان بمبدئه ومصيره ورسالته، وتجيبه عن الأسئلة المحيرة لمن لا دين له: من أنا؟ ومن أين جئت؟ وإلى أين أصير؟ ولماذا وجدت؟ وما الحياة وما الموت؟ وماذا قبل الحياة؟ وماذا بعد الموت؟ وما رسالتي في هذا الكوكب منذ عقلت حتى يدركني الموت؟

الإيمان ـ ولا شيء غيره ـ هو الذي يمنح الإنسان إجابات شافية عن هذه الأسئلة المصيرية الكبرى، ويجعل للحياة هدفا ومعنى وقيمة. وبدون هذا الإيمان سيظل الإنسان هباءة تائهة، أو ذرة تافهة، في هذا الوجود، لا قيمة له من حيث الحجم أمام مجموعات هذا الكون الكبير، ولا من حيث العمر، أمام الأزمة الجيولوجية المتطاولة، والأزمنة المستقبلية اللانهائية، ولا من حيث القدرة، أمام أحداث الطبيعة التي رآها تهدده، بالزلازل والبراكين والأعاصير والفيضانات التي تدمر وتقتل، والإنسان أمامها عاجز أشل اليدين، رغم ما يملك من علم وإرادة وتكنولوجيا متطورة.

الإيمان هو طوق النجاة دائما، وبه يمكن تغيير الإنسان من داخله، وإصلاحه من باطنه، فالإنسان لا يقاد كما تقاد الأنعام، ولا يصنع كما تصنع الآلات من حديد أو نحاس أو معدن.

إنما يحرك من عقله وقلبه، يقنع فيقتنع، ويهدى فيهتدي، ويرغب ويرهب، فيرغب ويرهب. والإيمان هو الذي يحرك الإنسان ويوجهه

ويولد فيه طاقات هائلة، لم تكن لتظهر بدونه، بل هو ينشئه خلقا جديدا، بروح جديدة، وعقل جديد، وعزم جديد، وفلسفة جديدة. كما رأينا ذلك في سحرة فرعون حين آمنوا برب موسى وهارون، وتحدوا جبروت فرعون، وقالوا له في شموخ واستعلاء: (فاقض ما أنت بقاض، إنما تقضي هذه الحياة الدنيا).

ورأيناه في أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم، وقد نقلهم إيمانهم من الجاهلية إلى الإسلام: من عبادة الصنم، ورعاية الغنم، إلى رعاية الأمم، وقيادة البشرية إلى هداية الله، وإخراجها من الظلمات إلى النور.

ولقد ظل النبي صلى الله عليه وسلم ثلاثة عشر عاما في مكة كل همه فيها وكل عمله ـ من التبليغ والدعوة ـ بناء الجيل الأول على معاني الإيمان.

تلك السنون كلها لم تنزل فيها تشريعات تنظم المجتمع وتضبط علاقاته الأسرية والاجتماعية، وتعاقب من ينحرف عن قوانينه. بل كان عمل القرآن، وعمل الرسول هو بناء هذا الإنسان وهذا الجيل من أصحابه، وتربيته وتكوينه، ليربى العالم كله بعد ذلك.

كانت دار الأرقم بين أبي الأرقم تقوم بدورها. وكان كتاب الله الذي يتنزل عليه منجما حسب الوقائع، ليقرأه على الناس على مكث، ويثبت به فؤاده، وأفئدة الذين آمنوا معه، ويرد على أسئلة المشركين ويعقب على مواقفهم ـ يقوم بالدور الأكبر في تربية الفئة المؤمنة، وحسن تسييرها، وترشيد سيرها. قال تعالى: (وقرآنا فرقناه لتقرأه على الناس على مكث ونزلناه تنزيلا)، (وقال الذين كفروا لولا نزل عليه القرآن جملة واحدة، كذلك لنثبت به فؤادك، ورتلناه ترتيلا، ولا يأتونك بمثل إلا جئناك بالحق وأحسن تفسيرا).

إن أهم ما ينبغي أن نشغل به اليوم إذا أردنا إصلاح حالنا: أن نبدأ البداية الصحيحة، وذلك ببناء الإنسان، بناءا حقيقيا لا صوريا، نبني عقله وروحه وجسمه وخلقه، بناء متوازنا لا طغيان فيه ولا إخسار في الميزان، نبنيه عقليا بالثقافة وروحيا بالعبادة، وجسميا بالرياضة، وخلقيا بالفضيلة، وعسكريا بالخشونة، واجتماعيا بالمشاركة، وسياسيا بالتوعية، ونعده للدين وللدنيا معا، وليكون صالحا في نفسه مصلحا لغيره، حتى ينجو من خسر الدنيا والآخرة، الذي ذكره الله في سورة العصر: (والعصر، إن الإنسان لفي خسر، إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر).

ولا يتم ذلك إلا في ضوء تصور كلي للوجود، وفلسفة واضحة للحياة، ومشروع متكامل للحضارة، تؤمن به الأمة، وتربي أبناءها وبناتها على اليقين به، والعمل وفق حكمه، والسير على نهجه، تتعاون على ذلك كل المؤسسات: الجامع والجامعة، والكتاب

والصحيفة، والتلفاز والإذاعة، فلا تشرق مؤسسة في حين تغرب أخرى، ويبني جهاز على حين يهدم آخر.

ويصدق فينا قول الشاعر قديما:

إذا كنت تبنيه وغيرك يهدم؟! وهل يبلغ البنيان يوما تمامه

إلى الفهرس

التربية قبل الجهاد

وهذا ما جعل دعاة الإصلاح الأصلاء ينادون اليوم بوجوب تقديم التربية على الجهاد، والتكوين على التمكين.

ونعني بالتربية والتكوين: بناء الإنسان المؤمن، الذي يستطيع أن ينهض بعبء الدعوة، وتكاليف الرسالة، لا يبخل بمال، ولا يضن بنفس، ولا يبالي بما يصيبه في سبيل الله. وهو في الوقت نفسه نموذج عملي، تتجسد فيه قيم دينه، وأخلاق دعوته. ففيه يرى الناس الإسلام حيا ملموسا.

وبناء هذا الإنسان أو تربيته وتكوينه أمر مطلوب دائما، ولكنه أشد ما يكون طلبا عندما يراد تأسيس دين جديد، أو أمة جديدة ذات رسالة جديدة. وكذلك عندما يضعف دين ما، ويدرك الوهن أمته، ويحتاج الدين إلى تجديد، والأمة إلى إحياء، فلا مناص من البداية الضرورية للتجديد والإحياء والإصلاح، وهي تربية جيل جديد، يمثل طلائع الأمة المنشودة.

هذا البناء والتكوين للإنسان، في صورة جيل مؤمن حقا، مؤهل لحمل راية الإصلاح والبعث، لابد أن يسبق كل دعوة إلى الجهاد المسلح لتغيير المجتمع، وإقامة الدولة.

ولهذا كانت مهمة القرآن المكي ـ طيلة ثلاثة عشر عاما ـ العمل على بناء هذا الإنسان، وتربية جيل الطلائع، تربية إيمانية أخلاقية عقلية متكاملة. وكان المثل الكامل لهذا الجيل هو الرسول صلى الله عليه وسلم: (لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة).

كانت مهمة القرآن في العهد المكي ترسيخ أصول العقيدة، وأصول الفضائل، ومكارم الأخلاق، وتأصيل منهج النظر السليم، والتفكير الرشيد، ومطاردة عقائد الجاهلية، وأصول رذائلها وآفاتها في الفكر والسلوك، وربط الإنسان بربه ربطا لا تنفصم عراه.

يقول الله تعالى في سورة المزمل، وهي من أوائل ما نزل من القرآن: (يا أيها المزمل، قم الليل إلا قليلا، نصفه أو انقص منه قليلا، أو زد عليه ورتل القرآن ترتيلا، إنا سنلقي عليك قولا ثقيلا).

فهذه التربية العميقة في مدرسة الليل، ومدرسة القرآن، إنما هي تهيئة لتحمل "القول الثقيل" الذي ينتظره، وما كان ثقله إلا لثقل الأمانة التي يعبر عنها.

وظلت آيات القرآن تتنزل على هذا المنهج، تغرس العقائد والمفاهيم، وتزرع القيم والفضائل، وتطهر العقول والقلوب من رجس الجاهلية، وتربيها على معاني الإيمان وما يتطلبه من صبر ومصابرة، وثبات، وبذل في نصرة الحق، ومجاهدة الباطل، وتنقية العقول من التقليد الأعمى للأجداد والآباء، أو للسادة والكبراء، قبل أن تنزل آية واحدة تأمر بالجهاد المسلح، والصراع الدامي مع أهل الشرك وعبدة الطاغوت.

بل كانوا يجيئون إلى النبي صلى الله عليه وسلم ما بين مضروب ومشجوج ومجروح، يشكون إليه ما أصابهم، مطالبين بحمل السلاح دفاعا عن أنفسهم، وحربا لعدوهم وعدو دينهم. ولكن النبي صلى الله عليه وسلم كان يقول لهم ما حكاه القرآن: (كفوا أيديكم وأقيموا الصلاة).

ليس معنى هذا التهوين من شأن الجهاد، فهو ذروة سنام الإسلام، ولكن حديثنا عن الأولويات، والأولوية هنا للتربية والتكوين.

ومن حسن التربية: إعداد الأنفس للجهاد عندما يجئ أوانه. كما في سورة المزمل: (علم أن سيكون منكم مرضى وآخرون يضربون في الأرض يبتغون من فضل الله وآخرون يقاتلون في سبيل الله).

على أن الجهاد المؤجل هو الجهاد المسلح فحسب، الجهاد بالسيف والسنان، أما الجهاد بالدعوة والبيان، أو الجهاد بالقرآن، فهو مطلوب وقائم من أول يوم، وفي سورة الفرقان ـ وهي مكية ـ يقول تعالى لرسوله: (فلا تطع الكافرين وجاهدهم به جهادا كبيرا).

ومثل ذلك جهاد الصبر والثبات واحتمال الأذى في سبيل الدعوة إلى الله. وهو ما نوهت به أوائل سورة العنكبوت: (أحسب الناس أن يتركوا أن يقولوا آمنا وهم لا يفتنون، ولقد فتنا الذين من قبلهم، فليعلمن الله الذين صدقوا وليعلمن الكاذبين) إلى أن قال: (ومن جاهد فإنما يجاهد لنفسه، إن الله لغني عن العالمين).

والتربية التي نتحدث عنها تدخل في هذا النوع وذلك من الجهاد.

وقد ذكر الإمام ابن القيم في الهدي النبوي ثلاث عشرة مرتبة من مراتب الجهاد، منها أربع مراتب في جهاد النفس، واثنتان في جهاد الشيطان، وثلاث في جهاد أرباب الظلم والبدع والمنكرات، وأربع في جهاد الكفار، منها الجهاد بالقلب واللسان والمال. فالمؤجل منها هو الجهاد بالنفس أو باليد.

يقول رحمه الله: "لما كان من أفضل الجهاد قول الحق مع شدة المعارض، مثل أن تتكلم به عند من تخاف سلطته وأذاه، كان للرسل ـ صلوات الله عليهم وسلامه ـ من ذلك الحظ الأوفر، وكان لنبينا ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ من ذلك أكمل الجهاد وأتمه".

ولما كان جهاد أعداء الله في الخارج فرعا على جهاد العبد نفسه في ذات الله، كما قال النبي صلى الله عليه وسلم: "المجاهد من جاهد نفسه في طاعة الله، والمهاجر من هجر ما نهى الله عنه" كان جهاد النفس مقدما على جهاد العدو في الخارج، وأصلا له، فإنه ما لم يجاهد نفسه أولا لتفعل ما أمرت به، وتترك ما نهيت عنه، ويحاربها في الله، لم يمكنه جهاد عدوه في الخارج، فكيف يمكنه جهاد عدوه والانتصاف منه، وعدوه الذي بين جنبيه قاهر له، متسلط عليه، لم يجاهده، ولم يحاربه في الله؟ بل لا يمكنه الخروج إلى عدوه، حتى يجاهد نفسه على الخروج.

فهذان عدوان قد امتحن العبد بجهادهما، وبينهما عدو ثالث، لا يمكنه جهادهما إلا بجهاده، وهو واقف بينهما يخيل له ما في جهادهما من المشاق، وترك الحظوظ، وفوت اللذات، والمشتهيات، ولا يمكنه أن يجاهد ذينك العدوين إلا بجهاده، فكان جهاده هو الأصل لجهادهما، وهو الشيطان، قال تعالى: (إن الشيطان لكم عدو فاتخذوه عدوا). والأمر باتخاذه عدوا تنبيه على استفراغ الوسع في محاربته ومجاهدته، كأنه عدو لا يفتر، ولا يقصر عن محاربة العبد على عدد الأنفاس.

فهذه ثلاثة أعداء، أمر العبد بمحاربتها وجهادها، وقد بلى بمحاربتها في هذه الدار، وسلطت عليه امتحانا من الله وابتلاء، وجعل بعضهم لبعض فتنة، ليبلو أخبارهم، ويمتحن من يتولاه ويتولى رسله، ممن يتولى الشيطان وحزبه.

وأمر المؤمنين أن يجاهدوا فيه حق جهاده، كما أمرهم أن يتقوه حق تقاته، وكما أن حق تقاته أن يطاع فلا يعصى، ويذكر فلا ينسى، ويشكر فلا يكفر، فحق جهاده أن يجاهد العبد نفسه ليسلم قلبه ولسانه وجوارحه لله، فيكون كله لله، وبالله، لا لنفسه، ولا بنفسه، ويجاهد شيطانه بتكذيب وعده، ومعصية أمره، وارتكاب نهيه، فإنه يعد الأماني، ويمني الغرور، ويعد الفقر، ويأمر بالفحشاء، وينهى عن التقى والهدى، والعفة والصبر، وأخلاق الإيمان كلها، فجاهده بتكذيب وعده، ومعصية أمره، فينشأ له من هذين الجهادين قوة

وسلطان وعدة، يجاهد بها أعداء الله في الخارج بقلبه ولسانه ويده وماله، لتكون كلمة الله هي العليا.

قال ابن القيم: إذا عرف هذا، فالجهاد أربع مراتب: جهاد النفس، وجهاد الشيطان، وجهاد الكفار، وجهاد المنافقين.

فجهاد النفس أربع مراتب أيضا:

إحداها: أن يجاهدها على تعلم الهدى، ودين الحق الذي لا فلاح لها، ولا سعادة في معاشها ومعادها إلا به، ومتى فاتها علمه، شقيت في الدارين.

الثانية: أن يجاهدها على العمل به بعد علمه، وإلا فمجرد العلم بلا عمل إن لم يضرها لم ينفعها.

الثالثة: أن يجاهدها على الدعوة إليه، وتعليمه من لا يعلمه، وإلا كان من الذين يكتمون ما أنزل الله من الهدى والبينات، ولا ينفعه علمه، ولا ينجيه من عذاب الله.

الرابعة: أن يجاهدها على الصبر على مشاق الدعوة إلى الله، وأذى الخلق، ويتحمل ذلك كله لله، فإذا استكمل هذه المراتب الأربع، صار من الربانيين، فإن السلف مجمعون على أن العالم لا يستحق أن يسمى ربانيا حتى يعرف الحق، ويعمل به، ويعلمه، فمن علم وعمل وعلّم فذاك يدعى عظيما في ملكوت السماوات.

وأما جهاد الشيطان، فمرتبتان، إحداهما: جهاد على دفع ما يلقى إلى العبد من الشبهات والشكوك القادحة في الإيمان.

الثانية: جهاده على دفع ما يلقى إليه من الإرادات الفاسدة والشهوات، فالجهاد الأول يكون بعدة اليقين، والثاني يكون بعدة الصبر. قال تعالى: (وجعلنا منهم أئمة يهدون بأمرنا لما صبروا، وكانوا بآياتنا يوقنون)، فأخبر أن إمامة الدين، إنما تنال بالصبر واليقين، فالصبر يدفع الشهوات والإرادات الفاسدة، واليقين يدفع الشكوك والشبهات.

وأما جهاد الكفار والمنافقين، فأربع مراتب: بالقلب، واللسان، والمال، والنفس، وجهاد الكفار أخص باليد، وجهاد المنافقين أخص باللسان.

وأما جهاد أرباب الظلم، والبدع، والمنكرات، فثلاث مراتب، الأولى: باليد إذا قدر، فإن عجز، انتقل إلى اللسان، فإن عجز، جاهد بقلبه، فهذه ثلاثة عشر مرتبة من الجهاد، و"من مات ولم يغز، ولم يحدث نفسه بالغزو، مات على شعبة من النفاق".

ولا ريب أن المراتب الست الأولى داخلة كلها في التربية المنشودة هنا. فهي ـ في الدرجة الأولى ـ جهاد للنفس، وجهاد للشيطان.

إلى الفهرس

لماذا كان للتربية الأولوية؟

ولكن لماذا كان للتربية الأولوية على الجهاد؟

يمكننا أن نوضح هذا في جملة نقاط أو أسباب:

أولا: أن الجهاد في الإسلام ليس أي جهاد، ولكنه جهاد بنية خاصة، لغاية خاصة، فهو جهاد "في سبيل الله". وقد سئل النبي صلى الله عليه وسلم عن الرجل يقاتل حمية (عصبية لقومه)، والرجل يقاتل ليرى مكانه (ليذكر بالشجاعة) والرجل يقاتل للمغنم: أيهم في سبيل الله؟ فقال: "من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا فهو سبيل الله".

وهذا النوع من التجرد من كل دافع دنيوي، لا ينشأ اعتباطا، بل لابد من تربية طويلة المدى، حتى يخلص دينه لله، ويخلصه الله لدينه.

ثانيا: أن ثمرة الجهاد التي يتطلع إليها المجاهد المسلم في الدنيا هي التمكين والنصر. وهذا التمكين لا يؤتى أكله إلا على أيدي مؤمنين صادقين، يستحقون التمكين، ويقومون بواجباته. وهم الذين ذكرهم الله بقوله: (ولينصرن الله من ينصره، إن الله لقوي عزيز، الذين إن مكناهم في الأرض أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر)، (وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم في الأرض كما استخلف الذين من قبلهم وليمكنن لهم دينهم الذي ارتضى لهم وليبدلنهم من بعد خوفهم أمنا، يعبدونني لا يشركون بي شيئا).

إن الذين يمكنون وينتصرون قبل أن تنضجهم التربية، قد يفسدون أكثر مما يصلحون.

ثالثا: إن سنة الله ألا يتحقق هذا التمكين إلا بعد أن يصهر أهله في بوتقة الابتلاء، وتصقلهم المحن والشدائد، ليبتلي الله ما في صدورهم، ويمحص ما في قلوبهم، ويميز الخبيث من الطيب، وهذا لون من التربية العملية، جرى به القدر على الأنبياء وأصحاب الدعوات في كل العصور. وقد سئل الإمام الشافعي: أيهما أولى للؤمن: أن يبتلى أو يمكّن؟ فقال: وهل يكون تمكين إلا بعد ابتلاء؟ إن الله ابتلى يوسف عليه السلام ثم مكّن له، كما قال تعالى: (وكذلك مكّنّا ليوسف في الأرض يتبوأ منها حيث يشاء).

إن التمكين الذي يجئ سهل المأخذ، داني القطوف، يخشى أن يضيعه أهله، أو يفرطوا في ثمراته، على عكس ما لو بذلوا فيه من أنفسهم وأموالهم وراحتهم، ومستهم البأساء والضراء والزلزلة حتى أتى نصر الله.

مستقبل الصحوة

إن المزية الكبرى لهذه الصحوة أنها تجسد الاتجاه الوحيد المعبر بصدق عن ضمير هذه الأمة، وعن هويتها الحضارية والعقائدية، الممثل لشخصيتها التاريخية المصور لطموحاتها وآمالها النابعة من ذاتها وروحها وكينونتها الحقيقية.

فقد أثبت استقراء الواقع كما أثبتت قراءة التاريخ: أن روح هذه الأمة هو الإسلام وأنها لا تعيش إلا به، ولا تنطلق إلا منه، ولا تبذل النفس والنفيس إلا من أجله، ولا تجتمع كلمتها إلى عليه.

ومن ثم لم تحقق نصرا يذكر في تاريخها القريب والبعيد، ولا في حاضرها المشهود إلا تحت لوائه.

وكم جربت هذه الأمة من دعوات، وسمعت من صيحات، تريد أن تقودها بغير الإسلام ولغير الإسلام، فلم تثمر إلا الشتات والضياع والخذلان.

إن الفلسفات والدعوات الوافدة من الغرب والشرق، والحلول المستوردة من اليمين واليسار، لم تحقق إلا الإخفاق والفشل في كل الميادين: عسكرية وسياسية واقتصادية واجتماعية وثقافية وأخلاقية.

وعيب هذه الفلسفات والأفكار والأنظمة، أنها دخيلة علينا، غريبة عن روحنا وتكويننا العقدي والفكري، فهي عاجزة عن أن تخاطب (جوانية) إنساننا المسلم وأن تقوده من مسلماته العقلية، وأن تفجر طاقاته المكنونة، التي يستطيع بها أن يغير مجرى الأحداث، كما سجل التاريخ لأسلافه من قبل.

لن تتحرك هذه الأمة وتصنع العجائب إذا أنشدتها معلقة امرئ القيس، أو قصيدة عمرو بن كلثوم.

ولن تتحرك وتصنع العجائب إذا قرأت عليها مؤلفات جان جاك روسو: أو كارل ماركس أو جون ديوي، أو ماوتس تونج، أو جان بول سارتر.

إنما تتحرك حقا وتصنع العجائب إذا حركتها بالقرآن، وقدتها بالإيمان، ورفعت أمامها راية الإسلام، وذكرتها بإمامها وزعيمها محمد عليه الصلاة والسلام.

وما لنا نذهب بعيدا؟ وقد جربنا ورأينا، وشاهدنا وشهدنا: أنهم يوم نادوا بشعارات القومية والاشتراكية والتقدمية وما شابهها، لم يستطيعوا أن يغيروا من واقع الأمة شيئا ذا بال، وما حققوه من مكاسب أو إنجازات ـ في نظر البعض على الأقل ـ خسرت الأمة أضعافه في جوانبها الأخرى، مادية ومعنوية، ومازالت الأمة تعاني من ثماره المرة، وخسائره غير المباشرة، التي تظهر آثارها في حياتنا العامة يوما بعد يوم.

إلى الفهرس

واجبنا نحو الصحوة

إن الصحوة الإسلامية هي أمل الغد لأمتنا وتستطيع أن تقود سفينة الإنقاذ بقوة وجدارة إذا ما ساعدناها نحن العرب والمسلمين على أداء رسالتها، وساعدت هي نفسها أيضا، وذلك بما يلي:

أ. أن تكون صحوة لنا جميعا، لا أن يقف فريق منا معها، وفريق يقاومها، ونقضي العمر في جذب وشد، دون أن ننجز شيئا كبيرا.

يجب أن نقف كلنا وراء الصحوة، وأن يزول هذا التفريق بين (مسلمين) أو (إسلاميين)، مسلمين بوراثة العقيدة، وإسلاميين بالتوجه والولاء، يجب أن نكون كلنا إسلاميين، حتى غير المسلمين، يمكن أن يكونوا كذلك فيؤمنوا بحتمية الحل الإسلامي، وإن لم يؤمنوا بحقيقة الاعتقاد الإسلامي.

وأحب أن أنبه هنا على تمييز مهم، هو الفرق بين الصحوة الإسلامية والحركة الإسلامية.

فالحركة الإسلامية لها مدلول معين يعني ارتباطا وتنظيما وقيادة وجندية، أما الصحوة فهي تيار عام يشمل كل العاملين للإسلام، جماعات وأفراد، ويضم معهم كل المهتمين والغيورين على الإسلام، وعلى أمته، وعلى أوطانه، وإن لم يضمهم عنوان أو لافتة، أو لم يدخلوا في إطار هيئة أو جمعية.

الصحوة تيار تلقائي، لا ينسب إلى جماعة بعينها، ولا إلى مدرسة فكرية بعينها، ولا إلى اتجاه سياسي بعينه، بل يضم الجميع في رحابه الفيحاء.

إنه التيار الذي لا يربط بين آحاده وفئاته إلا حب الإسلام، والاعتزاز به، والحرص على خير أمته وإعلاء كلمته، والتمكين له في الأرض، عقيدة وفكرا وسلوكا وتشريعا وحضارة ونظاما للحياة.

ب. أن نوفر لها مناخ الحرية والأمان، لتعمل بلا خوف، ولا تربص، وبغير قيود وأغلال، ودون حواجز وأسوار.

ففي مناخ الحرية تنطلق كلمة الإيمان الهادية، لتخاطب العقول فتعي، والقلوب فتهتدي، وتستحث العزائم فتنهض، والقوى فتعمل وتنتج.

ج. يجب ألا نتعامل مع الصحوة من عقدة الخوف أن تنحرف كما انحرف رجال الدين في الغرب المسيحي، أو كما انحرف رجال الملك في الشرق الإسلامي، وكأننا نحملها أوزار انحراف التاريخ كله في العالم كله!

علينا أن نعطيها الفرصة لقيادة الأمة في معركة التحرير، ومعركة البناء وسائر معاركها السبع، كما أعطيت للاتجاهات والحلول المستوردة الأخرى يمينية ويسارية، ليبرالية وثورية.

فالحل الوحيد الذي لم يأخذ فرصته بعد النهضة هو الحل الإسلامي الذي تنادي به الصحوة، مع أنه الحل الذي يمثل القاعدة الجماهيرية العريضة في شعوبنا باعتراف جميع المراقبين والدارسين.

إلى الفهرس

واجب الصحوة نحو نفسها

د. أما الصحوة نفسها فنريد منها أن تنزل إلى الشعب، إلى الشارع العربي المسلم وتتفاعل معه، تعلم الجاهل، وتقوي الضعيف، وتعالج السقيم، وتقوم المنحرف وتربي الجيل، وتأخذ بيد الضال إلى الهداية، والعاصي إلى التوبة، ولا تتعالى على المجتمع وهي جزء منه، ولا تنظر إليه على أنه هالك، وهي وحدها الناجية ففي الحديث الصحيح "إذا سمعتم الرجل يقول: هلك الناس، فهو أهلكهم" أي أقربهم إلى الهلاك لغروره وعجبه، واحتقاره لغيره.

هـ. أن تصحح المفاهيم الخاطئة عن الإسلام لدى الخاصة والعامة، سواء مفاهيم (الجمود) الموروثة من عهود التخلف، أم مفاهيم (الجحود) التي أدخلها الاستعمار الثقافي، وأن تقوم بدورها في (التوعية) تمهيدا لدورها في (التربية) وهما متكاملان.

و. أن تجعل أكبر همها أن تتسامح ولا تتعصب، وأن تجمع ولا تفرق، وتدرك أن العالم من حولها شرقا وغربا، ينسى خلافاته ويتقارب على كل مستوى: على المستوى الديني، تتقارب المذاهب النصرانية، وتتقارب اليهودية والنصرانية، وقد رأينا وثيقة الفاتيكان في (تبرئة اليهود من دم المسيح)، وعلى المستوى السياسي ترى سياسة الوفاق بين العملاقين، رغم خلافهما الأيديولوجي.

فلا يجوز أن تشتغل فصائل الصحوة بالمعارك الجانبية، والمسائل الهامشية التي يتعذر أن يتفق الناس فيها على رأي واحد، ويهتموا بالقضايا المصيرية والمسائل الكبرى، ويتبنوا قاعدة المنار الذهبية (نتعاون فيما اتفقنا عليه، ويعذر بعضنا بعضا فيما اختلفنا فيه).

ولا مانع من تعدد مدارس الصحوة وفصائلها، على أن يكون التعدد تخصص وتنوع، لا تعدد تناقض وتضاد.

ز. أن تكون صحوة بناء لا هدم، وأن يكون همها إضاءة الشموع لا سب الظلام وإماطة الأذى عن الطريق

لا لعن من وضعه فيه، فالنبي صلى الله عليه وسلم لم يبعث لعانا، ولكن بعث رحمة. حتى أن النبي صلى الله عليه وسلم قال لمن سب الشيطان: "لا تقل: تعس الشيطان، فإنك إن قلت ذلك انتفخ حتى يصير كالجبل، ويقول: صرعته بقوتي، ولكن قل: بسم الله، فإنه يتصاغر حتى يصبح كالذباب".

ح. أن تفتح باب الحوار مع كل التيارات الوطنية المخالفة، مؤكدة لمواضع الاتفاق، متفاهمة في نقاط

الاختلاف، داعية ـ كما أمر الله تعالى ـ بالحكمة لا بالسفاهة، وبالموعظة الحسنة، لا بالحملة العنيفة، وبالجدال بالتي هي أحسن، لا بالتي هي أخشن.

ط. ألا تشتغل بالفروع عن الأصول، ولا بالجزئيات عن الكليات، ولا بالشكل عن الجوهر، ولا بالنوافل عن

الفرائض، وأن تتعمق في (فقه مراتب الأعمال) حتى لا تختل النسب الشرعية بين التكاليف، فتقدم ما حقه التأخر، وتؤخر ما حقه التقديم، وتعظم الهين من الأمور، وتهون العظيم وقد قال الإمام الغزالي بحق: "فقد الترتيب بين الخيرات من جملة الشرور". كما قرر علماؤنا أن الله لا يقبل النافلة حتى تؤدى الفريضة، ولا يقبل الفروع ممن ضيع الأصول.

ي. أن تراعى سنن الله في خلقه، وهي سنن ثابتة لا تتبدل، صارمة لا تجامل، فلا تلتمس حصادا بغير زرع، ولا تستعجل ثمرة قبل أوان نضجها، وتعلم أن لكل شيء في الكون قانونه المطرد،

فمن صادم قوانين الكون صدمته، ومن غالبها غلبته، ومن عمل من خلالها مهتديا بهدي الله كان نصيبه الفلاح في الأولى والآخرة.

معارك فكرية يجب أن تتوقف

وعلينا إذا كنا جادين في البحث عن الخلاص، أن ننهي الخلافات المعلقة دون حسم أو تحديد.

ولكي نختصر الطريق على الباحثين والمناقشين، أود أن أعلن بكل وضوح: أن هناك قضايا فكرية طال عليها الأمد، وعقدت لها المؤتمرات والحلقات والندوات، وأعتقد أن الرؤية فيها قد وضحت، وينبغي أن ينتهي الاختلاف فيها، والاتفاق على أصولها.

يجب أن نفض الاشتباك ـ بلغة العسكريين ـ بين أمور طالما حدث الاشتباك بينها نتيجة لغموض المصطلحات، وعدم تحديد المفاهيم، أو رغبة قوم في بقاء هذا الاشتباك أو النزاع مستمر دون كلمة فاصلة.

من هذه الأمور:

1. الاشتباك بين الدين والعلم

فهذه معركة نشأت في غير أرضنا، ولم توجد عندنا يوما، وكما قلنا ونقول دائما: إن الدين عندنا علم، والعلم عندنا دين، ولا يوجد داعية ولا فقيه ولا أحد ينتمي إلى الصحوة الإسلامية، يقول بالاستغناء عن العلم، أو إغلاق الباب في وجه التكنولوجيا، بل يرون ذلك فريضة دينية، وضرورة حيوية، فلا مبرر لافتعال خصومة أو معركة حول هذا الموضوع المنتهي.

إلى الفهرس

2. الاشتباك بين الأصالة والمعاصرة

ولا داعي لأن أكرر ما قلته حول (السلفية والتجديد) فالمفهومان غير متعارضين أصلا، إلا إذا جعلنا الأصالة بمعنى (الانغلاق) على الماضي وحده غافلين عن متاعب الحاضر وآمال المستقبل، رافضين كل تجديد أو اجتهاد، أو اقتباس للحكمة من أي وعاء، أو جعلنا (المعاصرة) بمعنى (الانفلات) من تراثنا كله: الملزم وغير الملزم، الثابت والمتغير، الإلهي والبشري، إن جاز لنا أن نسمي الجانب الإلهي (القرآن والسنة) تراثا!

على أن هذا لا يعني أن الأمر سهل، فلابد من بذل جهد كبير من أهل العلم والفكر المخلصين لتمييز الإلهي من البشري في التراث، والملزم من غير الملزم والثابت من المتغير منه، وكذلك النافع من غير النافع من المعاصر، والملائم لنا من غير الملائم، فليس كل ما في (العصر) خيرا، فكم فيه من (سلبيات) ضارة بل قاتلة.

إلى الفهرس

3. الاشتباك بين العروبة والإسلام

فالعروبة في الواقع عميقة الصلة بالإسلام، فالعربية لسان قرآنه وسنته ولغة عبادته وثقافته، والعروبة وعاؤه، وأرض العرب معقله وحصنه، بل مقدساته ومساجده التي لا تشد الرحال إلا إليها، والعرب هم حملة رسالة الإسلام إلى العالم والصحابة كلهم عرب، ومن لم يكن عربي العرق منهم أصبح عربي اللسان والقلب (ومن تكلم العربية فهو عربي) وقد جاء في الأثر: إذا عز العرب عز الإسلام وإذا ذل العرب ذل الإسلام.

العروبة إذن عميقة الصلة بالإسلام، والإسلام كذلك عريق الصلة بالعروبة، ولا تعارض بين العروبة والإسلام، إلا إذا كانت العروبة (علمانية) وهي التي لا تقبل الإسلام حكما، أو كان الإسلام (شعوبيا) وهو الذي يعادي العرب، والواقع أن الإسلام يجعل للعرب مكانة خاصة، ويعرب عن مشاعر المسلمين من غير العرب، إن لم يعرب ألسنتهم وثقافتهم.

إلى الفهرس

مفاهيم يجب أن تتمايز

يكمل ما ذكرناه أمر آخر لابد منه، وهو التوفيق الحاسم بين مفاهيم لا يجوز أن تختلط أو تتشابه، بل يجب أن تتمايز وتتباين، فأحد طرفيها يجب أن يكون في موضع القبول، والآخر يجب أن يكون في موضع الرفض.

من ذلك:

1. التفريق الحاسم بين العلمية والعلمانية

فالعلمية فريضة شرعية وضرورة قومية، وتأكيدها واجب الدعاة والمربين والمفكرين، وأجهزة التوجيه كلها، أما العلمانية فهي مرفوضة بكل معيار: معيار الدين، أو معيار

الديمقراطية، أو معيار الدستور، أو معيار الأصالة أو معيار المصلحة، وتفصيل ذلك يطول.

إلى الفهرس

2. التفريق الحاسم بين التفاعل الثقافي والغزو الثقافي

فالتفاعل الثقافي مشروع، بل مطلوب، ولكن التفاعل إنما يكون من جانبين بين ندين، يعطي كل منهما ويأخذ، واعيا مختارا، غير مكره، ولا واقع تحت تأثير خاص. فهو يأخذ ما يحتاج إليه، وفق معايير مدروسة، ويدع ما يدع تبعا لمنطق معلوم، محتفظا بهويته وخصائصه، غير مفرط في قيمه ومبادئه ومسلماته المشخصة لذاته.

أما الغزو فهو من طرف قوي لطرف ضعيف، أي من غالب قاهر، لمغلوب مقهور مبهور بقوة غالبة، فهو يأخذ منه ولا يعطيه، ويأخذ ما لا يحتاج إليه بل يأخذ ما لا ينفعه، وإن كان قد ينفع صاحبه، بل كثيرا ما يأخذ الضار ويدع النافع.

إلى الفهرس

3. التفريق الحاسم بين الدولة الإسلامية والدولة الدينية

فالدولة الإسلامية كما جاء بها الإسلام، وكما عرفها تاريخ المسلمين ـ دولة مدنية، تقول السلطة بها على البيعة والاختيار والشورى، والحاكم فيها وكيل عند الأمة أو أجير لها، ومن حق الأمة ـ ممثلة في أهل الحل والعقد فيها ـ أن تحاسبه وتراقبه، وتأمره وتنهاه، وتقومه إن اعوج، وإلا عزلته ومن حق كل مسلم، بل كل مواطن، أن ينكر على رئيس الدولة نفسه إذا رآه اقترف منكرا، أو ضيع معروفا، بل على الشعب أن يعلن الثورة عليه إذا رأى كفرا بواحا عنده فيه من الله برهان.

أما الدولة الدينية (الثيوقراطية) التي عرفها الغرب في العصور الوسطى والتي يحكمها رجال الدين، الذين يتحكمون في رقاب الناس، وضمائرهم أيضا، باسم (الحق الإلهي) فما حلوه في الأرض فهو محلول في السماء، وما ربطوه في الأرض فهو مربوط في السماء! فهي مرفوضة في الإسلام، وليس في الإسلام رجال دين بالمعنى الكهنوتي، إنما فيه علماء دين، يستطيع كل واحد أن يكون منهم بالتعلم والدراسة، وليس لهم سلطان على ضمائر الناس، ودخائل قلوبهم، وهم لا يزيدون عن غيرهم من الناس في

الحقوق، بل كثيرا ما يهضمون ويظلمون، ومن ثم نعلنها صريحة: نعم، للدولة الإسلامية، ولا، ثم لا للدولة الدينية (الثيوقراطية).

إلى الفهرس

مخاوف

إن الصحوة هي معقد الأمل، ومناط الرجاء لهذه الأمة، بعد فشل الحلول المستوردة ليبرالية وثورية، ولكني لا أكتمكم أني أخاف عليها، كما يخاف الوالد على ولده، في فترة المراهقة وأوائل الشباب.

أنا لا أخاف على الصحوة من القوة الأجنبية المتربصة، وهي لها بالمرصاد، ولا القوى الداخلية المتسلطة، وهي غالبا ما تعمل لحساب تلك، شعرت أم لم تشعر.

إنما أخاف على الصحوة من نفسها، إذا لم تع دورها، ولم تتنبه لما يحيط بها وما يخطط لها.

أجل، أخاف عليها من عدة تيارات، تتنازعها في داخلها، بأن يغلب أحد هذه التيارات، وهو مستبعد أو يؤدي تنازعها فيما بينها إلى إضعافها جميعا.

هذه التيارات هي بإجمال شديد (أرجو أن أوفق إلى تفصيله في كتاب آخر):

1. **تيار الجمود والتزمت، الذي يرفض الاجتهاد والتجديد، والانفتاح على العالم، ويبقى على كل قديم، وإن لم يعد لزمننا صالحا، ويقاوم كل جديد، وإن كانت الحاجة إليه ماسة، تيار (الجمود الفكري: المذهبي والحرفي).**

2. **تيار الغلو والتنطع الذي يحجر على وسع الله، ويشدد في غير موضع التشديد ويقوم على التعسير لا التيسير، والتنفير لا التبشير، تيار (التطرف السلوكي).**

3. **تيار التهور والاستعجال والاصطدام بالسلطة قبل الأوان، وبلا ضرورة، تيار (العنف العسكري).**

4. **تيار الاستعلاء على المجتمع، والعزلة عنه، والانسحاب من ميدان الإصلاح والتغيير، تيار (التكفير والهجرة).**

5. **تيار التعصب الضيق، الذي تنغلق به كل جماعة على نفسها، مسيئة الظن بغيرها، تيار (الانغلاق أو التشرذم الحزبي).**

6. تيار الاستغراق في السياسة المحلية الآنية، والاشتغال عن جوانب أخرى في غاية الأهمية مثل:

- **الجانب الدعوي (التوعية على أوسع نطاق).**
- **الجانب التربوي (تكوين الجيل المسلم المنشود).**
- **الجانب الاجتماعي الذي برع فيه دعاة التنصير.**

وأعني هنا تيار (الانهماك السياسي).

إلى الفهرس

الصحوة تصحح نفسها

ورغم هذه المخاوف أقول: إن الصحوة بفضل الله قادرة على أن تصحح خطأها وتنفي خبثها، وثقتي كبيرة أن تيار الوسطية الذي يعمل في دأب وصبر، في توازن واعتدال، وبوعي وتخطيط، ستكون له الغلبة، والهيمنة على كل التيارات الأخرى المخوفة.

وقد لمست بنفسي شيئا من ذلك أوائل السبعينات، مع شباب الجماعات الإسلامية في الجامعات المصرية، فقد كان الخط السائد هو خط التشدد والتشنج والحرفية، ولكن بعد لقاء الشباب بالدعاة المعروفين من أهل العلم والورع والاعتدال، غلبت الوسطية على التطرف، وغدا هذا التيار هو الغالب إلى اليوم.

والخلاصة أن تيار الصحوة الإسلامية، هو تيار الغد المرجو، والمستقبل المأمول، وخصوصا أن عموده الفقري هم الشباب، وهم ذخيرة الغد.

ورغم مخاوفنا على الصحوة فإن آمالنا فيها أقوى، وتيار الوسطية فيها هو الغالب السائد، وهو المرتجى المأمول، وكل المراقبين مجمعون على قدرة هذا التيار على تغيير الإنسان من داخله، وإنشائه خلقا جديدا، يقوم على الطهارة والبذل والعطاء، لا على النفعية، أو العبث، أو التهريج، أو اتباع الشهوات، والسير في مواكب النفاق.

اكتفي هنا بشهادة (د. سعد الدين إبراهيم) رغم تشدده في نقد التيار الإسلامي الأصولي ـ ممثلا في الإخوان المسلمين ـ وموقفه من المسألة الاجتماعية، فهو لم يسعه إلا أن يعترف بقدرة هذا التيار ـ وحده ـ على تعبئة الأمة، وتجنيد طاقاتها من أجل أهدافها الكبرى، حيث يؤكد في خواتيم دراسته في ندوة (التراث وتحديات العصر) وفي مقام تذكير الماركسيين بأهمية التراث، وخطر تجاهل الدين، وتأصل الإسلام في أعماق الأغلبية العظمى، وقوته

التعبوية: "أن المشروع الأصولي قادر دائما على استنفار المؤمنين للجهاد والاستشهاد، بأقوى مما تستطيع أي رؤية وضعية، وأن تلك الحقيقة هي التي تفسر إسقاط نظام الشاه، واغتيال السادات وإخراج القوات الأمريكية من لبنان، وهي أمور تمناها الماركسيون العرب وغيرهم من القوى الوطنية العربية، ولكن الأصوليين هم الذين حققوها.

إن التيار الإسلامي الأصولي الوسطي ـ بحسن فهمه للإسلام، وحسن فهمه للحياة وسنن الله فيها، وحسن فهمه لهموم وطننا العربي والإسلامي الكبير، وعمق نظرته إليها، وحسن عمله بالإسلام وحين دعوته إليه في شموله وتوازنه وسعة آفاقه، وجهاده الدؤوب لتمكين أحكام الإسلام وتعاليمه في أرضه، وتغيير الواقع المنحرف عن الإسلام، أو المعادي له إلى واقع إسلامي صحيح، هذا التيار هو تيار المستقبل، وسفينة النجاة لهذه الأمة.

وهو بتأييد الله تعالى، ويفضل هذه الصحوة الفتية المباركة، قادر أن يصل بوطننا وأمتنا الكبرى إلى بر الأمان (ويومئذ يفرح المؤمنون بنصر الله)

5. الخضوع للواقع المنحرف

ومن المزالق التي تزل فيها أقدام المفتين في عصرنا: الخضوع لضغط الواقع الماثل بما فيه من انحراف عن الإسلام، وتحد لأحكامه وتعاليمه.

ومن المعلوم أن هذا الواقع إنما صنعه الاستعمار الغربي أيام سطوته وسيطرته على بلاد المسلمين ومقدراتهم الثقافية والاجتماعية وغيرها، ثم استمر بل نما، على أيدي عملائه وتلامذته من بعده، ممن تخرجوا على يديه، وصنعوا على عينيه.

ولا ريب أن كثيرا من الناس، ممن يتصدون للحديث عن الإسلام وأحكامه يعانون هزيمة روحية أمام هذا الواقع، ويشعرون بالضعف البالغ أمام ضغطه القوي المتتابع.

فلا عجب أن تأتي أحاديثهم وفتاويهم "تبريرا" لهذا الواقع المنحرف، وتسويغا لأباطيله، بأقاويل ما أنزل الله بها من سلطان، ولا قام عليها من برهان.

ولهذا رأينا بعض المشتغلين بالفقه والفتوى أيام سطوة الرأسمالية يجهدون أنفسهم في تبرير البنوك الربوية الرأسمالية، وبذل المحاولات المستميتة لتحليل الفوائد، رغبة في إعطاء سند شرعي لبقاء هذه البنوك واستمرارها مع رضا الضمير الإسلامي عنها. وهيهات.

وفي أيام سطوة الاشتراكية، وجدنا كتبا ورسائل وبحوثا ومقالات وفتاوى تصدر لتبرير التأميمات والمصادرات بحق وبغير حق.

ولا أتحدث هنا عن المأجورين ممن يبيعون دينهم بدنياهم أو بدنيا غيرهم، ويشترون بآيات الله ثمنا قليلا، فقد تحدثت عنهم من قبل.

وإنما أتحدث عن المخلصين الذين لا يزال دينهم أعز عليهم من كل شيء، ولكن الواقع يضغط عليهم بقوة، من حيث لا يشعرون أو لا يشعرون، فهم يركبون الصعب والذلول لتطويع النصوص للواقع، على حين يجب أن يطوع الواقع للنصوص، لأن النصوص هي الميزان المعصوم الذي يحتكم إليه ويعول عليه، والواقع يتغير من حسن إلى سيئ، ومن سيئ إلى أسوأ أو بالعكس، فلا ثبات له ولا عصمة.

ولهذا يجب أن يرد المتغير إلى الثابت، ويرد غير المعصوم إلى المعصوم، ويرد الموزون إلى الميزان، قال الله تعالى (فإن تنازعتم في شيء فردوه إلى الله والرسول إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر، ذلك خير وأحسن تأويلا).

إلى الفهرس

6. تقليد الفكر الغربي

ومن الأسباب الجوهرية وراء انحراف الكثير من الفتاوى في عصرنا: التقليد أو التبعية ـ وإن شئت قلت: العبودية ـ للفكر الغربي، وللحضارة الغربية.

إن نفرا من قومنا يعانون ما يسمونه "عقدة النقص" تجاه الغرب وحضارته وفكره، ويعتبرون الغرب إماما يجب أن يتبع، ومثالا يجب أن يحتذى، وما كان من أفكارنا وقيمنا وتقاليدنا ونظمنا مخالفا للغرب، اعتبروا ذلك عيبا في حضارتنا، ونقصا في شريعتنا، ما عليه الغرب إذن هو الصواب، وما يخالفه هو الخطأ!

والدليل على صواب الغرب ما بلغه من إبداع مادي، وتقدم عمراني، وتفوق علمي، سخر به قوى الطبيعة، وجعل الإنسان يغزو الفضاء، ويضع أقدامه على سطح القمر.

ولقد استطاع الغرب إبان سيطرته العسكرية والسياسية على بلاد الإسلام، أن يغرس هذه المفاهيم في عقول كثيرة، وأن يصنع على عينيه أجيالا تتعبد في محراب حضارته، وتتلقى أفكاره ومثله قضية مسلمة، تردد أقواله ترديد الببغاوات، وتحاكي أفعاله محاكاة القردة.

ولا جدال في أن هذه الآثار التي خلفها الاستعمار الغربي هي شر ما صنعه في ديارنا، والخسارة فيها أفدح وأعظم، لأنها خسارة تتعلق بالإنسان لا بالمادة.

إن استعمار الأرض أهون خطرا، وأقل ضررا، من استعمار الإنسان، وهل ثمة استعمار للإنسان أكبر من استعمار عقله وقلبه؟!

إن هذا النوع من الاستعمار يجعل المستعمر باقيا وإن رحلت جيوشه وعساكره، مادامت مخططاته منفذة وأفكاره وتقاليده سائدة، وقوانينه مرعية.

وأشد من هذا كله خطرا هو: محاولة تبرير هذا الوضع، وإضفاء الشرعية عليه، واصطياد الشبهات، وتحريف بالأدلة عن مواضعها، من أجل "تغريب" المجتمع.

ومما يمزق الضمائر الحية أن يجد عبيد الفكر الغربي من المتصدين للفتوى، والمتسمين بسمة أهل العلم الديني من يزور لهم أقوالا يتكئون عليها، لينفذوا مآربهم من تغيير صفة الأمة المسلمة، وتغيير وجهتها وقبلتها، من حيث يشعرون أو لا يشعرون.

إن هذا الاتجاه خطأ بمقياس العلم، وشرك بمقياس الدين، وانحراف بمقياس الأخلاق، وخيانة بمقياس القومية، فليست أوروبا هي أم الدنيا، وليس تاريخ أوروبا هو تاريخ العالم، وليس الرجل الأبيض هو سيد هذه الأرض، وليست الحضارة الغربية هي المثل الأعلى للحضارات، وليس الفكر الغربي هو مصدر الإلهام للعالمين.

إن الغرب له حضارته وتراثه وفكره وقيمه، ونحن لنا حضارتنا وتراثنا وفكرنا وقيمنا النابعة من عقيدتنا، ولسنا ملزمين بأن نسير وراء الغرب شبرا بشبر، وذراعا بذراع، وأن ندخل جحر الضب إذا دخله هو.

إن قوانين الغرب وأنظمته التشريعية مبنية على فلسفته في الحياة، ونظرته العامة إلى الوجود، وإلى الله والإنسان، وفكرته عن الدين والدنيا، وهو ذلك كله مخالف لفلسفتنا وفكرنا ـ نحن المسلمين ـ عن الوجود والحياة، وعن الله والإنسان.

لسنا ملزمين أن نبيح الفائدة الربوية، أو نحل الخمور والميسر، لأن الغرب يحلها.

وليس علينا أن نمنع الطلاق وتعدد الزوجات لمجرد أن الغرب يمنعها.

وليس من واجبنا أن نسوي بين الذكر والأنثى في كل شيء وقد خالفت بينهما فطرة الله، لأن الغرب هذه فلسفته.

ربما كان هناك بعض العذر قبل نصف قرن أو ثلث ـ إبان سطوة الاستعمار العسكري والسياسي والفكري ـ لمن ينادي باتباع سبيل الغرب، والأخذ بحضارته كلها ـ خيرها وشرها، حلوها ومرها ـ ما يحب منها وما يكره، وما يحمد منها وما يعاب.

أما اليوم، وبعد أن حمل الاستعمار السياسي عصاه ورحل، وبعد أن أصبحنا سادة أنفسنا، وبعد أن كشفت النهضة الثقافية كثيرا من مخبوء تراثنا وكنوز حضارتنا، وبعد أن قامت عشرات الأقلام في العالم الإسلامي تجلو الصدأ عن قيمة هذا التراث في الفكر والتشريع والتوجيه، فلم يعد ثمة عذر للبقاء على العبودية التقليدية للفكر الغربي.

لقد شرع الأحرار المخلصون من الغربيين أنفسهم، ينقدون حضارتهم، ويكشفون عن مثالبها وجوانب القصور فيها، ويعلنون صيحة الخطر منذرين بانهيارها، إذا لم تتدارك نفسها.

ولعل الكثير منا قرءوا بعض هذا النقد الذاتي لمثل شبنجلر في كتابه: "تدهور الحضارة الغربية" والكسيس كارليل في كتابه "الإنسان ذلك المجهول" وكولن ولسون في كتابه "سقوط الحضارة" وغيرهم من المفكرين الناقدين.

إن عبيد الفكر الغربي بيننا قوم لا يقنعهم شيء، ولا يهمهم أن يقنعهم شيء.

إنهم يريدون إسلاما على مزاجهم، أو حسب هواهم، وإن شئت قل: حسب أهواء متبوعيهم من المستشرقين والمبشرين والشيوعيين.

يريدون إسلاما غربيا أو ماركسيا، كل حسب مذهبه وفلسفته، إنهم يقولون: لا تأخذ بأقوال الأئمة ولا الفقهاء ولا الشراح والمفسرين، فإنها آراء بشر، ولا نأخذ إلا من الوحي المعصوم.

فإن وافقتهم على ذلك ـ افتراضا ـ قالوا: إنا نأخذ ببعض الوحي دون بعضه، نأخذ بالقرآن ولا نأخذ بالسنة! فإن فيها الضعيف والموضوع والمردود: أو نأخذ بالسنة المتواترة، ولا نأخذ بسنن الآحاد، أو نأخذ بالسنة العملية، ولا نأخذ بالسنة القولية!!

فإن سلم لهم ذلك قالوا: القرآن نفسه إنما كان يعالج أوضاع البيئة العربية المحدودة، وشؤون المجتمع البدوي الصغير، فلابد أن نأخذ منه ما يليق بتطورنا، وندع منه ما ليس كذلك!!

فإذا قال القرآن (حرمت عليكم الميتة والدم ولحم الخنزير) وإذا سمى لحم الخنزير "رجسا" قالوا: إنما قال القرآن ذلك في خنازير كانت سيئة التغذية، أما خنازير اليوم فليست كذلك ـ إنها خنازير عصرية، وليست خنازير متخلفة كخنازير العصور الماضية!!

وإذا قال القرآن في الميراث (للذكر مثل حظ الأنثيين) قالوا: إنما كان قبل أن تخرج المرأة للعمل، وتثبت وجودها في ميادين الحياة المختلفة.

أما اليوم فقد أصبح لها شخصيتها، واستقلالها الاقتصادي، فلزم أن ترث كما يرث الرجل، ولم يعد مجال للتفرقة بين الجنسين؟!

وإذا قال القرآن (إنما الخمر والميسر والأنصاب والأزلام رجس من عمل الشيطان فاجتنبوه) قالوا: إنما حرم القرآن ذلك في بيئة حارة، ولو نزل القرآن في بيئة باردة، لكان له موقف آخر!!

ومعنى هذا أنهم ينسبون إلى الله تعالى، الجهل بأحوال خلقه، وأنه لا يعلم منها إلا ما هو واقع، وأما ما يخبئه القدر، وما يضمره المستقبل، فلا يعلمه، ولا يحسب حسابه.

تعالى الله عما يقولون علوا كبيرا (قل أأنتم أعلم أم الله) (ألا يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير).

إلى الفهرس

---

7. الجمود على الفتاوى القديمة دون مراعاة الأحوال المتغيرة

ومن مزالق الفتوى: الجمود على ما سطر في كتب الفقه، أو كتب الفتاوى منذ عدة قرون، والإفتاء بها لكل سائل دون مراعاة لظروف الزمان والمكان والعرف والحال، مع أن هذه كلها تتغير وتتطور، ولا تبقى جامدة ثابتة أبد الدهر.

من ذلك ما يذكره بعض أهل الفتوى مما نصت عليه كتب الفقه: أن حليق اللحية لا تقبل شهادته.

ومهما يكن رأينا في حلق اللحية وتأثيم فاعلها ـ وهو أمر اختلف فيه المعاصرون ـ فنحن لا نستطيع رد شهادة الحليق، لعموم

البلوى به، وعموم البلوى من أسباب التخفيف والرخص كما هو معلوم.

ولو أخذنا بالرأي المدون في الكتب لأوشكنا أن نعطل المحاكم في أداء وظيفتها في الفصل في الخصومات والقضاء بين الناس والعدل.

وأكثر من ذلك ما ذكره الفقهاء من أن الأكل في الطريق يسقط المروءة، وبالتالي يسقط الشهادة.

ولا يخفى أن عصرنا يعرف بأنه "عصر السرعة" وهي سرعة في كل جانب، حتى في الأكل، ولهذا يسمونه: عصر "السندوتش" ولهذا نرى كثيرا من الناس يأكلون في الشوارع، وأمام المحلات، ونحوها، ولم يعد هذا السلوك منافيا للمروءة لدى جمهور الناس كما كان من قبل.

ومن ذلك ما ذهب إليه جمهور الفقهاء في مختلف المذاهب المتبوعة من منع المرأة من الذهاب إلى المسجد للصلاة وبخاصة الشابة، سدا للذريعة، وخوفا من الفتنة: أي خشية أن نفتن أو تفتن.

فمثل هذا إذا كان له ما يبرره في العصور الماضية لم يعد له ما يبرره اليوم، فقد خرجت المرأة بالفعل إلى المدرسة، وإلى الجامعة وإلى العمل وإلى السوق وإلى غيرها، فلا يجوز أن يبقى المسجد وحده هو المكان المحظور عليها، في حين أن الحديث الصحيح يقول "لا تمنعوا إماء الله مساجد الله" رواه مسلم. ولا سيما أن المرأة لا تستفيد من المسجد الصلاة فقط، بل تستفيد معها حضور المواعظ والدروس الدينية، وتتعرف على غيرها من صالحات النساء، فيتعارفن على الخير، ويتعاون على البر والتقوى.

والواقع أن كل نساء الملل والأديان في الشرق والغرب يذهبن إلى معابدهن ما عدا المرأة المسلمة.

وقد لمست بالتجربة أن ذهاب المرأة إلى المسجد لصلاة التراويح والجمعة ونحوها، يؤثر في نفسيتها واتجاهها، ويحفزها إلى خير كثير.

ومما يذكر هنا ما نرى بعض أهل الفتوى يصرون عليه إلى اليوم وهو ما يتعلق بثبوت الهلال برؤية العين المجردة، والإعراض عن استخدام المراصد والأجهزة الحديثة، وإهمال ما يقطع به علماء الفلك الثقات الذين يجمعون على عدم إمكان رؤية الهلال في ليلة معينة، لعدم ولادته فلكيا في أي مكان في العالم شرقه أو غربه، هذا مع تقدم علم الفلك في عصرنا تقدما مذهلا، تم على أساس الصعود إلى القمر.

وقد جاء عن الصحابة رضي الله عنهم، بل جاء عن الرسول صلى الله عليه وسلم نفسه ما يشهد برعاية هذا الأصل.

روى ابن أبي شبتة يسنده: أن رجلا جاء إلى ابن عباس فقال: ألمن قتل مؤمنا توبة؟ قال: لا، إلى النار! فلما ذهب قال له جلساؤه: ما هكذا كنت تفتينا، فما بال هذا اليوم؟ قال: إني أحسبه مغضبا يريد أن يقتل مؤمنا، فبعثوا في أثره، فوجوده كذلك".

رأى حبر الأمة ابن عباس رضي الله عنهما ـ في عيني هذا الرجل الحقد والغضب، والتوثب للقتل، وإنما يريد الفتوى تفتح له باب التوبة بعد أن يرتكب جريمته، فقمعه وسد عليه الطريق، حتى لا يتورط في هذه الكبيرة الموبقة، ولو رأى في عينيه صورة امرئ نادم على ما فعل، لفتح له باب الأمل.

وقد روى سعيد بن منصور عن سفيان قال: كان أهل العلم إذا سئلوا عن القاتل قالوا: لا توبة له، وإذا ابتلى رجل (أي قتل بالفعل) قالوا له: تب.

وفي المعنى ما أخرجه أبو داود عن أبي هريرة: أن رجلا سأل النبي صلى الله عليه وسلم عن المباشرة للصائم، فرخص له، وأتاه آخر فسأله، فنهاه، فإذا الذي رخص له شيخ، وإذا الذي نهاه شاب".

وأشهر من ذلك أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يجيب عن السؤال الواحد بأجوبة مختلفة، وذلك لاختلاف أحوال السائلين.

فهو يجيب كل واحد بما يناسب حاله، ويعالج قصوره أو تقصيره، فقد وجدنا من يسأله عن وصية جامعة، فيقول له: لا تغضب، وآخر يقول له: قل: آمنت بالله، ثم استقم.

وآخر يقول له: كف عليك لسانك.

وهكذا يعطي كل إنسان من الدواء ما يرى أنه أشفى لمرضه، وأصلح لأمره، فهذا ـ وما سبق ـ أصل في تغير الجواب أن الفتوى بتغير أحوال السائلين.

ولهذا يجب أن يلاحظ المفتي في فتواه الظروف الشخصية للمستفتي ـ نفسية واجتماعية ـ والظروف العامة للعصر والبيئة.

فرب فتوى تصلح لعصر ولا تصلح لآخر، وتصلح لبيئة ولا تصلح لأخرى، وتصلح لشخص ولا تصلح لغيره، وقد تصلح لشخص في حال، ولا تصلح له نفسه في حال أخرى.

وهذا من أهم الملاحظات التي يغفل عنها الكثيرون، مع أن المحققين من علمائنا رحمهم الله ـ نبهوا عليها، وأكدوا أهميتها.

ولعل أبرزهم في هذا المجال هو الإمام المحقق ابن القيم الجوزية، الذي أفرد لذلك فصلا ممتعا في كتابه الفريد "إعلام الموقعين عن رب العالمين" ويقصد بالموقعين عن رب العالمين، أهل الفتوى، لأنهم إذا قصدوا لبيان حكم شرعي في قضية، فكأنهم يوقعون عن الله تعالى في شأنها، كالموكل بالتوقيع نيابة عن الأمير أو السلطان.

وقد أصبحت كلمات ابن القيم في مطلع هذا الفصل من كتابه، منارا يهتدي به السائرون، ونوه بها المصلحون المعاصرون، وكل من حاول الإسهام في تجديد الفقه الإسلامي، وإحياء العمل بالشريعة الإسلامية.

يقول العلامة ابن القيم:

"فصل في تغير الفتوى بحسب تغير الأمكنة والأزمنة والأحوال والعوائد" ثم قال:

"هذا فصل عظيم النفع جدا، وقع بسبب الجهل به غلط عظيم على الشريعة، أوجب من الحرج والمشقة، وتكليف ما لا سبيل إليه ما يعلم أن الشريعة الباهرة التي في أعلى رتب المصالح لا تأتي به، فإن الشريعة مبناها وأساسها على الحكم ومصالح العباد في المعاش والمعاد، وهي عدل كلها، ورحمة كلها، ومصالح كلها، وحكمة كلها، فكل مسألة خرجت عن العدل إلى الجور، وعن الرحمة إلى ضدها، وعن المصلحة إلى المفسدة، وعن الحكمة إلى العبث، فليست من الشريعة وإن أدخلت فيها بالتأويل، فالشريعة عدل الله بين عباده، ورحمته بين خلقه، وظله في أرضه، وحكمته الدالة عليه وعلى صدق رسوله صلى الله عليه وسلم أتم دلالة وأصدقها".

وعند المالكية نجد الإمام القرافي في كتابه "الإحكام" يقول:

"إن استمرار الأحكام التي تدركها العوائد، مع تغير تلك العوائد، خلاف الإجماع وجهالة في الدين، بل كل ما هو في الشريعة يتبع العوائد، يتغير الحكم فيه عند تغير العادة إلى ما تقتضيه العادة المتجددة، وليس هذا تجديدا للاجتهاد من المقلدين حتى يشترط فيه أهلية الاجتهاد، بل هذه قاعدة اجتهد فيها العلماء وأجمعوا عليها فنحن نتبعهم فيها من غير استئناف اجتهاد".

ونلاحظ هنا أن كلام القرافي في الأحكام التي مدركها ومستندها العوائد والأعراف، لا تلك التي مستندها النصوص المحكمات.

ويعود القرافي إلى هذا الموضوع مرة أخرى في الفرق الثامن والعشرين من كتابه "الفروق" فيؤكد أن القانون الواجب على أهل الفقه والفتوى مراعاته على طول الأيام، هو ملاحظة تغير الأعراف والعادات بتغير الأزمان والبلدان.

ويقول:

"فمهما تجدد من العرف أعتبره، ومهما سقط أسقطه، ولا تجمد على المسطور في الكتب طول عمرك، بل إذا جاءك رجل من غير إقليمك يستفتيك، لا تخبره على عرف بلدك، واسأله عن عرف بلده، وأجره عليه، وأفته به، دون عرف بلدك والمقرر في كتبك، فهذا هو الحق الواضح، والجمود على المنقولات أبدا ضلال في الدين، وجهل بمقاصد علماء المسلمين والسلف الماضيين".
أما عند الحنفية، فنجد مجموعة كبيرة من الأحكام الاجتهادية التي قال بها المتقدمون أعرض عنها المتأخرون، وأفتوا بما يخالفها لتغير العرف، نتيجة لفساد الزمن أو لتغير المجتمع، أو لغير ذلك.

ولا غرابة في هذا، فإن أئمة المذهب أنفسهم ـ أبا حنيفة وأصحابه ـ قد فعلوا ذلك.

ذكر السرخسي: أن الأمام أبا حنيفة في أول عهد الفرس بالإسلام، وصعوبة نطقهم بالعربية، رخص لغير المبتدع منهم أن يقرأ في الصلاة بما لا يقبل التأويل من القرآن باللغة الفارسية، فلما لانت ألسنتهم من ناحية، وانتشر الزيغ والابتداع، من ناحية أخرى، رجع عن هذا القول.

وذكر كذلك، أن أبا حنيفة كان يجيز القضاء بشهادة مستور الحال في عهده عهد تابعي التابعين، اكتفاء بالعدالة الظاهرة، وفي عهد صاحبيه ـ أبي يوسف ومحمد ـ منعا ذلك، لانتشار الكذب بين الناس.

ويقول علماء الحنفية في مثل هذا النوع من الخلاف بين الإمام وصاحبيه، هو اختلاف عصر وزمان لا اختلاف حجة وبرهان.

وقد أصبح من القواعد الفقهية الأساسية عند الحنفية وغيرهم قاعدة: "العادة محكمة" واستدلوا لها بقول ابن مسعود: "ما رآه المسلمون حسنا فهو عند الله حسن".

وكتب في ذلك علامة المتأخرين من الحنفية ابن عابدين رسالته القيمة التي سماها "نشر العرف فيما بنى من الأحكام على العرف" بين فيها: أن كثيرا من المسائل الفقهية الاجتهادية كان يبنيها المجتهد على ما كان في عرف زمانه، بحيث لو كان في زمان العرف الحادث لقال بخلاف ما قاله أولا قال:

ولهذا قالوا في شروط المجتهد لابد فيه من معرفة عادات الناس.

قال: فكثير من الأحكام تختلف باختلاف الزمان، لتغير عرف أهله، ولحدوث ضرورة، أو فساد أهل الزمان، بحيث لو بقي الحكم على ما كان عليه، للزم منه المشقة والضرر بالناس، ولخالف قواعد الشريعة المبنية على التخفيف والتيسير، ودفع الضرر والفساد، لبقاء العالم على أتم نظام، وأحسن إحكام.

ولهذا نرى مشايخ المذهب خالفوا ما نص عليه المجتهد "يعني إمام المذهب" في مواضع كثيرة، بناها على ما كان في زمنه، لعلمهم أنه لو كان في عهدهم لقال بما قالوا به، أخذا من قواعد مذهبه".

إن حاجات الناس تتطور، ومصالحها تتغير من وقت لآخر، ومن حال لأخرى.

وهذا ما جعل كثيرا من أهل العلم يقرون أشياء كانوا ينكرونها ـ أو أكثرهم ـ منذ سنوات غير بعيدة، نزولا على حكم الضرورة، واستجابة لنداء الواقع، وتطبيقا لروح الشريعة، التي أراد الله بها اليسر، ولم يرد بها العسر.

فمنذ سنين قام جدال طويل حول مقام إبراهيم ونقله من مكانه في المسجد الحرام، حيث كان يعوق الطائفين في أيام الموسم، وهل يسوغ نقله إلى حيث لا يؤذي الطائفين ولا يضايقهم؟ أم وضعه في مكانه ـ حيث كان وكما كان ـ أمر تعبدي لا يجوز التفكير في غيره؟

وكتبت بحوث ومقالات، وألفت رسائل وكتيبات، حول الموضوع، ما بين أخذ ورد، وجذب وشد، وتجويز ومنع.

وكان صوت المانعين، من أي تغيير فيه، أو مساس به ـ أول الأمر ـ أجهر وأقوى، حتى قضت الأوضاع العملية، والضرورات الواقعية، بانتصار الرأي المعتدل، الذي صدر عن "المجلس التأسيسي لرابطة العالم الإسلامي" ونصه كما يلي:

"تفاديا لخطر الزحام أيام موسم الحج، وحرصا على أرواح الحجاج، التي تذهب في الموسم، تحت أقدام الطائفين، الأمر الذي ينافي سماحة الشريعة الإسلامية، ولضرورة عدم تكليف النفس البشرية أكثر مما في وسعها.

قرر المجلس التأسيسي لرابطة العالم الإسلامي في دورته السادسة القرار التالي:

بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد، فبناء على ما من الله به تعالى على حكومة هذه المملكة العربية السعودية من التوفيق لتوسعة الحرمين الشريفين توسعة لم يسبق لها مثيل، وبناء على ما أفاء الله على هذه البلاد المقدسة من الخير العظيم، والفضل العميم، وما يسره من توطيد الأمن في ربوع هذه الديار، وتيسير السبل لأداء فريضة الحج إلى بيته الحرام، فقد أصبح عدد من يؤم البيت الحرام لأداء هذه الفريضة أضعافا مضاعفة عما كان عليه في الماضي، حتى صار المسجد الحرام رغم هذه التوسعة العظيمة، يضيق بالوافدين إليه.

ومن المأمول أن يزداد عدد الحجاج في المستقبل عاما بعد عام إن شاء الله، وإن أشد ما يقع الزحام والضيق من بعد توسعة المطاف في الجزء من المطاف الذي يقع بين الحجر الأسود وبين مقام إبراهيم، فيحصل بذلك الزحام للطائفين على اختلاف أنواعهم من الحرج والمشقة ما الله تعالى به عليم.

كما يقع الخلل في هذه العبادة الشريفة، وهي الطواف، الذي هو أحد أركان الحج الذي لا يتم الحج إلا بها، لفقدان ما يطلب في هذه العبادة من الخشوع والخضوع، والتذلل لله تعالى وصدق التوجه إليه، حتى ينسى المرء ـ من شدة الزحام والمضايقة ـ أنه في عبادة، ولا يهتم إلا بتخليص نفسه ومن معه، وربما تجاوز الأمر إلى النزاع والخصام في مكان لا ينبغي فيه ذلك، بل لقد زاد الأمر، وأدى في بعض الحالات إلى إزهاق الأرواح من الضعفة والشيوخ دهما بالأرجل.

وقد ارتفعت الشكوى إلى الله تعالى، ثم إلى ولي الأمر من كل من شاهد بعيني رأسه هذه الأخطار العظيمة، والمضار الجسيمة، مطالبين وملحين بوجوب إيجاد حل سريع لهذه المشكلة.

وعلى ضوء هذه الحوادث البالغة الخطورة، والتي لا يجوز لأهل العلم وحملة الشريعة الإسلامية، السكوت عليها، ولا التغاضي عنها، قد طلب سماحة رئيس المجلس التأسيسي لرابطة العالم الإسلامي، الشيخ محمد بن إبراهيم، من أصحاب الفضيلة أعضاء المجلس المذكور، بيان آرائهم فيها على هدى نصوص كتاب الله، وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم وأحكام الشريعة السمحة، التي جاءت بالخير والرحمة ورفع الحرج عن الأمة الإسلامية، وبعد البحث والمذاكرة وتداول الرأي تقررت الموافقة بإجماع الآراء على ما يأتي:

1. بالنظر لما تدعو إليه الضرورة في أيام موسم الحج من توسعة المطاف في الجزء الذي بين الحجر الأسود ومقام إبراهيم، فإنه يجب على الفور، وحلا لهذه المشكلة العظيمة، إزالة جميع الزوايا الموجودة في هذا الجزء من المطاف ـ كالبناء ـ القائم على مقام إبراهيم عليه السلام وكالعقد المسمى بباب بني شيبة، لأن جميع هذه الزوائد لا تمت إلى مقام إبراهيم بأي صلة.

كما أن البناء الموجود حاليا فوق مقام إبراهيم، لم يكن موجودا في صدر الإسلام، إنما هو من المحدثات التي أحدثت فيما مضى، كما هو مدون في كتب التاريخ.

ومعظم الزحام، إنما ينشأ من وجود هذه الزوائد، التي لا ضرورة لبقائها، بل بإزالتها يزول عن الطائفين والقائمين والركع والسجود الكثير من الضيق والحرج والمشقة. وذلك عملا بمقتضى قوله تعالى: (وما جعل عليكم في الدين من حرج) وقوله تعالى: (يريد الله بكم اليسر) وقوله تعالى: (يريد الله أن يخفف عنكم،

وخلق الإنسان ضعيفا) وحديث: "يسروا ولا تعسروا" وغيره من الأحاديث الشريفة الواردة في هذا المعنى.

2. أن يجعل على مقام إبراهيم عليه السلام، بدلا من البناء الحالي بعد إزالته صندوق من البلور السميك القوي على قدر الحاجة فقط، ويكون مدورا بارتفاع مناسب، لئلا يتعثر به الطائفون.

وبذلك تحصل التوسعة لهذا الجزء من المطاف، ويزول كثير من الحرج والمشقة والضيق، كما يتسنى للكثير من العامة رؤية مقام إبراهيم من غير أن تصل أيديهم إليه، ومعرفة المقام على حقيقته، وأنه الحجر الذي كان يقوم عليه إبراهيم عند رفع القواعد من البيت، وينتفي ما تظنه العامة من أن بداخل البناء الموجود حاليا قبرا لإبراهيم عليه السلام.

3. وقد استجاب جلالة الملك فيصل لهذا الالتماس، وأصدر أمره الكريم إلى إدارة مشروع توسعة الحرمين الشريفين بإنفاذ هذا القرار.

خاتمة

بعد هذه الفصول، علينا أن نؤكد أنه من اللازم للحركة الإسلامية على المستوى الإقليمي والمستوى العالمي، أن يكون لها رؤية واضحة للمستقبل، ينبثق عنها خطة بينة المعالم، محددة الأهداف، متطورة المناهج، شرعية الوسائل، مرتبة المراحل، علمية التفكير، واقعية النظرة، مرنة التنفيذ، موزعة الأعباء على الأجهزة والمؤسسات المختصة، غير معتمدة على أشخاص بأعيانهم تستمر ببقائهم، وتتوقف بتوقفهم. خطة مبنية على معلومات موثقة، وإحصاءات دقيقة، وبحوث مستفيضة، وتحليلات علمية، ومقارنات موضوعية، ودراسة لكل الإمكانات المادية والبشرية القائمة والمحتملة، ولجميع العوائق المادية والمعنوية، الداخلية والخارجية، واقعة أو متوقعة. دون تهويل أو تهوين.

يقوم على وضع هذه الخطة جهاز متخصص متكامل من خبراء متمكنين، متنوعي الثقافة، يكمل بعضهم بعضا، يستعينون بكل من يرون الاستفادة منه برأي أو معلومة، من أفراد أو أجهزة وإدارات.

ومن اللازم، قبل وضع الخطة، وبعد وضع الخطة، الاهتمام بأمور ثلاثة: التفرغ والتخصص والمعلومات. وهو ما نتحدث عنه في هذه الخاتمة.

ضرورة تفرغ الكفايات للعمل الحركي

من أهم ما يجب أن تحرص عليه الحركة الإسلامية في خطتها القادمة: العمل بجد على أن يتفرغ عدد من الكفايات في المواقع الاستراتيجية الهامة. وخصوصا في مجال العلم والفكر، ومجال التربية والتكوين، ومجال الدعوة والإعلام، ومجال السياسة والتخطيط.

ولا يجوز للحركة أن تظل معتمدة على التطوع المحض من أناس مشغولين بأعمالهم التي تستغرق جل أوقاتهم ولا يبقى منها إلا فضلات لا يقوم عليها وحدها عمل كبير.

وهذا لا يتنافى مع وجود متطوعين محتسبين ببعض جهودهم وأوقاتهم، فهذا ما لا يستغنى عنه بحال. ومردوده كبير، لسعة القاعدة التي تعمل مقطوعة، بل المفروض أن جميع أعضاء الحركة يعملون متطوعين إلا من فرض عليهم التفرغ لمصلحة الدعوة.

وقد كان الإمام الشهيد حسن البنا يعمل في التدريس عدة سنوات من حياة الدعوة حتى أجبرته ظروف الدعوة وتطور الحركة على التفرغ التام لها.

وكثير من رجال الحركة وقادتها في أكثر من بلد، كانوا يعملون أساتذة في الجامعات، أو في وظائف رسمية متنوعة أو في مهن حرة مختلفة.

ولكن العطاء الأكبر إنما يكون عند التفرغ الكامل للحركة وأهدافها.

ومن الضروري أن يراعى عند التفرغ التنوع والتكامل، حتى تسد كل الثغرات ولا يقع تركيز في جانب، على حساب جانب أو جوانب أخرى، فلا يوجد إسراف إلا بجانبه حق مضيع.

ولا يجوز أن يكون المال عقبة في سبيل هذه الغاية، فإن بذل المال لذلك من أهم ما يتقرب به إلى الله، ويمكن أن يصرف فيه من أموال الزكوات والصدقات والأوقاف والوصايا وغيرها.

بل يجوز أخذ الفوائد من الأموال المودعة في البنوك الأجنبية والمحلية، لتنفق في هذا الجانب، ولا يقال: إن أصلها حرام، لأنها حرام في حق مودعها، ولكنها حلال زلال للمصالح الإسلامية، وتفريغ العاملين للإسلام في مقدمتها.

ولا يجوز للعاملين المخلصين أن يستنكفوا من أخذ الأجر الكافي الملائم لأمثالهم لو عملوا في أي مجال آخر، حتى يستمروا في العمل ولا يتبرموا به، المهم هو العدل في غير إسراف ولا تقتير.

ولكن من اللازم اختيار العناصر القوية، ووضع الرجل المناسب في المكان المناسب دون محاباة لزيد، ولا غبن لعمرو، ولا اعتبار إلا للكفاية والأمانة وحدهما (إن خير من استأجرت القوي الأمين) (القصص: 26).

إعداد المتخصصين

ومما يكمل ذلك: ضرورة التوجه والتوجيه لإعداد متخصصين في جوانب الحياة كافة.

فنحن في عصر التخصص، بل التخصص الدقيق، ولسنا في عصر العباقرة الموسوعيين الذين يعرفون كل فن، ويفتون في كل علم.

إن الذكاء وحده لا يكفي، والمواهب وحدها لا تكفي.

لا بد من الدراسة العلمية المتخصصة، القادرة على أن تساير العصر، وتلبي الحاجة، وتتقن العمل الذي يسند إليها، وفي الحديث الصحيح "إن الله كتب الإحسان (أي الإتقان) على كل شيء" وفي الحديث الآخر "إن الله يحب من أحدكم إذا عمل عملا أن يتقنه".

وهذا الإحسان أو الإتقان لا يتم في عصرنا إلا بالتخصص، وما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب.

خذ مثلا موضوعا كالإعلام، وما يتطلبه من تخصصات متنوعة.

إن كتابة النص علم، وكتابته في صورة حوار (سيناريو) علم، وإخراجه علم، وتنفيذه علم، وتسويقه علم.

والإخراج الإذاعي، غير الإخراج التلفزيوني، غير الإخراج المسرحي، غير الإخراج السينمائي.

وللإعلام اليوم فنون تعد بالعشرات، تقوم عليها ـ أو على بعضها ـ معاهد وكليات، فيها دراسات عالية وعليا.

وإذا أردنا (أسلمة) هذه الفنون، فلن يتحقق ذلك إلا بالمتخصصين القادرين على إيجاد البدائل الإسلامية لما هو واقع الآن.

إن الحركة غنية بالنوابغ من أبنائها، ولكنهم لا يوزعون على المواقع الهامة والمؤثرة والمحتاج إليها توزيعا عادلا.

فكثيرا ما نرى تكديسا في جانب من الجوانب كالطب مثلا، أو الصيدلية، أو الهندسة المدنية، أو المعمارية، على حين نجد أنواعا من التخصصات العلمية النادرة لا يوجد فيها إلا أفراد يعدون على أصابع اليد الواحدة، وقد لا يوجد فيها أحد قط.

ومثل تلك التخصصات المتعلقة بالدراسات الإنسانية والاجتماعية، مثل علوم النفس والتربية والاجتماع والاقتصاد والعلوم السياسية والإعلام ونحوها، وهي التي أصبحت مرغوبا عنها من نوابغ الشباب، حيث يقبلون على التخصصات العلمية وحدها. في حين أن هذه العلوم أوصل بالمجتمع وأكثر تأثيرا فيه، ولهذا اهتم اليهود في أمريكا وغيرها أن يسيطروا على كراسيها، ويستأثروا بنصيب الأسد منها ليقدروا على توجيهها لحسابهم كما يريدون.

وكم من شباب أذكياء متفوقين تتجه ميولهم وقدراتهم الخاصة إلى الدراسات الإنسانية والأدبية، فوجههم ضغط المجتمع إلى الدراسات العلمية، ولو وجهوا حيث وجههم ميولهم وقدراتهم لكان إنتاجهم أغزر، وإثمارهم أوفر.

والحقيقة أن هناك نقصا ظاهرا في العلوم الإنسانية مع ما لها من أهمية وخطر. بل ميدان الأدب، والقصة والنقد، يكاد يخلو من نوابغ الشباب في عدد من الأقطار، ومن يوجد منهم لا يتاح له البروز بالقدر الكافي، وبالشكل المناسب خلافا لما يفعل اليساريون وغيرهم، الذين يروج بعضهم لبعض ويرفع بعضهم من شأن بعض، على حد قول الشاعر:

وبقيت في خلف يزين بعضهم بعضا، ليدفع معور عن معور!

مركز للمعلومات والبحوث

ومن أهم حاجات العصر وأولوياته: إنشاء بنك للمعلومات أو مركز للبحوث والمعلومات على مستوى عصرنا: عصر (الثورة المعلوماتية) كما يحلو لبعضهم أن يسميها، يقوم عليه خبراء متخصصون مدربون، كما قال تعالى: (ولا ينبئك مثل خبير) (سورة فاطر: 14). وتخدمه أجهزة متطورة تلائم مشارف القرن الحادي والعشرين الميلادي.

لقد تنوعت مصادر المعلومات، وتطورت وسائل الحصول عليها، ووسائل تخزينها ثم تصنيفها، ثم الاستفادة منها عند الطلب. فهل أفدنا منها؟

إننا لا نملك معلومات كافية، ولا نصف كافية، عن أنفسنا، بله أن نملك معلومات عن الآخرين، من أصدقائنا، أو من أعدائنا. على حين يعرف خصومنا عنا كل شيء.

كنت في مدينة استانبول مع مجموعة من الإخوة العرب ممن يعملون في قطاع البنوك الإسلامية، ولقينا بعض الإخوة من جمهورية تركستان في الاتحاد السوفييتي، وقالوا لنا: أين مساعداتكم لإخوانكم في تركستان وأخواتها ممن كانوا وراء الستار الحديدي، وقد فسح لهم المجال الآن، ليعملوا ويتحركوا! إنهم

في حاجة إلى مساعدات وخبرات من كل نوع: دينية وثقافية وتعليمية واقتصادية، فأين هي؟ ومن يقدمها؟

إن السلطات الدينية المسيحية تحركت منذ وقع هذا الانفتاح ولم تضيع الفرصة كانت المعلومات متوفرة لديها. والخرائط معدة، والإحصاءات والبيانات مهيأة ففي الحال وزعت الأناجيل والرسائل، وانتشر الدعاة، وفتحت في هذه المدة نحو (2000) ألفي كنيسة، ما بين جديد النشأ، وقديم رمم، ومنهوب استعيد. ولا يزال العمل المسيحي للكنيسة ورجالها موصولا مستمدا، فأين العمل الإسلامي في المناطق الإسلامية؟

وتلفت إلى من حولي: ماذا تعرفون عن إخوانكم هؤلاء؟ عن عددهم، عن جغرافيتهم، عن تاريخهم، عن إمكاناتهم المادية والأدبية، عن حاجاتهم، ووحداتنا لا تعلم عنهم شيئا يذكر، ولا نعرف جهة إسلامية تملك معلومات وافية موثقة عنهم بالقدر الذي يشفي الغليل.

إن الحركة الإسلامية، على المستوى المحلي والعالمي، ينبغي أن تعيش عصرها، وتطور نفسها، وتجند كل طاقاتها، بل طاقات المسلمين من حولها. وأن تجعل شعارها هذا الدعاء: اللهم اجعل يومنا خيرا من أمسنا، واجعل غدنا خيرا من يومنا وأحسن عاقبتنا في الأمور كلها.

اللهم آمين

الفصل 11

الإمام ابن عبد الوهاب

فالإمام محمد بن عبد الوهاب في الجزيرة العربية كانت الأولوية عنده للعقيدة، لحماية حمى التوحيد من الشركيات والخرافيات التي لوثت نبعه، وكدرت صفاءه، وألف في ذلك كتبه ورسائله، وقام بحملاته الدعوية والعملية في هدم مظاهر الشرك.

إلى الفهرس

الزعيم محمد أحمد المهدي

والزعيم محمد أحمد المهدي في السودان كانت الأولوية عنده للجهاد، وتربية الأتباع على الخشونة والتجرد، ومقاومة الاستعمار البريطاني وأتباعه.

إلى الفهرس

السيد/جمال الدين

والسيد جمال الدين الأفغاني كانت الأولوية عنده لإيقاظ الأمة، وتهييجها على الاستعمار، الذي يمثل خطرا على دينها ودنياها، وإشعارها بأنها أمة واحدة تشترك في القبلة، وفي العقيدة، وفي التوجه، وفي المصير. وقد تجلى ذلك في مسيرته وسيرته، وفي مجلة "العروة الوثقى" التي كان يصدرها هو تلميذه وصديقه الشيخ محمد عبده.

إلى الفهرس

الإمام محمد عبده

والإمام محمد عبده، اهتم بتحرير العقل المسلم من أسر التقليد، وربطه بالمنابع الإسلامية الصافية، كما قال هو عن نفسه وأهدافه: "وارتفع صوتي بالدعوة إلى أمرين عظيمين: الأول تحرير الفكر من قيد التقليد، وفهم الدين على طريقة سلف الأمة قبل ظهور الخلاف، والرجوع في كسب معارفه إلى ينابيعها الأولى، واعتباره من ضمن موازين العقل البشري التي وضعها الله لترد من شططه، وتقلل من خلطه وخبطه، لتتم رحمة الله في حفظ نظام العالم الإنساني، وأنه على هذا الوجه يعد صديقا للعلم، باعثا على البحث في أسرار الكون، داعيا إلى احترام الحقائق الثابتة، مطالبا بالتعويل عليها في أدب النفس وإصلاح العمل، كل هذا أعده أمرا واحدا، وقد خالفت في الدعوة إليه رأي الفئتين العظيمتين اللتين يتركب منهما جسم الأمة: طلاب علوم الدين ومن على شاكلتهم، وطلاب فنون هذا العصر ومن هو في ناحيتهم ـ أما الأمر الثاني فهو إصلاح أساليب اللغة العربية.

وهناك أمر آخر كنت من دعاته والناس جميعا في عمى عنه وبعد عن تعقله، ولكنه هو الركن الذي تقوم عليه حياتهم الاجتماعية، وما أصابهم الوهن والضعف والذل إلا بخلو مجتمعهم منه، وما للشعب من حق العدالة على الحكومة .. أن الحاكم وإن وجبت طاعته هو من البشر الذين يخطئون وتغلبهم شهواتهم، وأنه لا يرده عن خطئه ولا يوقف طغيان شهوته إلا نصح الأمة له بالقول وبالفعل. جهرنا بهذا القول والاستبداد في عنفوانه، والظلم قابض على صولجانه، ويد الظلم من حديد، والناس كلهم عبيد له أي عبيد".

إلى الفهرس

الإمام حسن البنا

والإمام الشهيد حسن البنا عنى ـ أول ما عنى ـ بتصحيح فهم الإسلام لدى المسلمين، وإعادة ما حذف منه على أيدي المتغربين والعلمانيين، فقد أرادوه عقيدة بلا شريعة، ودينا بلا دولة، وحقا بلا قوة، وسلاما ـ أو استسلاما ـ بلا جهاد، وأراده هو ـ كما أراده شارعه ـ عقيدة وشريعة، ودينا ودولة، وحقا وقوة، وسلاما وجهادا، ومصحفا وسيفا. وبذل جهدا كبيرا ليبين للناس: أن السياسة جزء من الإسلام، وأن الحرية فريضة من فرائضه، كما وجه عنايته وجهوده لتكوين جيل مسلم جديد رباني الغاية، إسلامي الوجهة، محمدي الأسوة، جيل يفهم الإسلام فهما دقيقا، ويؤمن به إيمانا عميقا، ويترابط عليه ترابطا وثيقا، ويعمل به في نفسه، ثم يعمل ويجاهد لتوجيه النهضة إليه، وصبغ الحياة به. وفي سبيل هذه الغاية يريد أن يجمع ولا يفرق، وأن يوحد ولا يشتت، ولهذا لا يثير الموضوعات التي من شأنها أن تمزق الصف، وتفرق الكلمة، وتقسم الناس شيعا وأحزابا، وحسبه أن يجتمع الناس على الأساسيات والأصول الكلية للإسلام.

وقد حكى في مذكراته موقفا فيه عبرة يدل على وعيه المبكر ـ وهو في أول العشرينات من عمره ـ بقضية الوحدة وضرورة تجميع أبناء الأمة على أمهات العقائد والشرائع والأخلاق، وتجنب الخلافات الفرعية التي لا تنتهي.

فقد كانت هناك زاوية (مسجد صغير) يلقي فيها الأستاذ دروسه، وفيها يقول: "كانت هذه الزاوية الثانية هي الزاوية التي بناها الحاج مصطفى تقربا إلى الله تبارك وتعالى، وفيها اجتمع هذا النفر من طلاب العلم يتدارسون آيات الله والحكمة في أخوة وصفاء تام.

ولم يمض وقت طويل حتى ذاع نبأ هذا الدرس، الذي كان يستغرق ما بين المغرب والعشاء، وبعده يخرج إلى درس القهاوي حتى قصد إليه كثير من الناس ومنهم هواة الخلاف وأحلاس الجدل وبقايا الفتنة الأولى.

وفي إحدى الليالي شعرت بروح غريبة، روح تحفز وفرقة، ورأيت المستمعين قد تميز بعضهم من بعض، حتى في الأماكن، ولم أكد أبدأ حتى فوجئت بسؤال: ما رأي الأستاذ في مسألة التوسل؟ فقلت له: "يا أخي، أظنك لا تريد أن تسألني عن هذه المسألة وحدها، ولكنك تريد أن تسألني كذلك في الصلاة والسلام بعد الأذان، وفي قراءة سورة الكهف يوم الجمعة، وفي لفظ السيادة للرسول صلى الله عليه وسلم في التشهد، وفي أبوي النبي صلى الله عليه وسلم، وأين مقرهما؟ وفي قراءة القرآن وهل يصل ثوابها إلى الميت أو لا يصل؟ وفي هذه الحلقات التي يقيمها أهل الطرق وهل هي معصية أو قربة إلى الله"؟ وأخذت أسرد له

مسائل الخلاف جميعا التي كانت مثار فتنة سابقة وخلاف شديد فيما بينهم، فاستغرب الرجل، وقال: نعم أريد الجواب على هذا كله!

فقلت له: يا أخي، إني لست بعالم، ولكني رجل مدرس مدني أحفظ بعض الآيات، وبعض الأحاديث النبوية الشريفة وبعض الأحكام الدينية من المطالعة في الكتب، وأتطوع بتدريسها للناس. فإذا خرجت بي عن هذا النطاق فقد أحرجتني، ومن قال لا أدري فقد أفتى، فإذا أعجبك ما أقول، ورأيت فيه خيرا، فاسمع مشكورا، وإذا أردت التوسع في المعرفة، فسل غير من العلماء والفضلاء المختصين، فهم يستطيعون إفتاءك فيما تريد، وأما أنا فهذا مبلغ علمي، ولا يكلف الله نفسا إلا وسعها، فأخذ الرجل بهذا القول، ولم يجد جوابا، وأخذت عليه بهذا الأسلوب، سبيل الاسترسال، وارتاح الحاضرون أو معظمهم إلى هذا التخلص.

ولكني لم أرد أن تضيع الفرصة فالتفت إليهم وقلت لهم: "يا إخواني، أنا أعلم تماما أن هذا الأخ السائل، وأن الكثير من حضراتكم، ما كان يريد من وراء هذا السؤال إلا أن يعرف هذا المدرس الجديد من أي حزب هو؟ أمن حزب الشيخ موسى أو من حزب الشيخ عبد السميع؟! وهذه المعرفة لا تفيدكم شيئا، وقد قضيتم في جو الفتنة ثماني سنوات وفيها الكفاية. وهذه المسائل اختلف فيها المسلمون مئات السنين ولا زالوا مختلفين والله تبارك وتعالى يرضى منا بالحب والوحدة ويكره منا الخلاف والفرقة، فأرجو أن تعاهدوا الله أن تدعوا هذه الأمور الآن وتجتهدوا في أن نتعلم أصول الدين وقواعده، ونعمل بأخلاقه وفضائله العامة وإرشاداته المجمع عليها، ونؤدي الفرائض والسنن وندع التكلف والتعمق، حتى تصفو النفوس، ويكون غرضنا جميعا معرفة الحق لا مجرد الانتصار للرأي، وحينئذ نتدارس هذه الشئون كلها معا في ظل الحب والثقة والوحدة والإخلاص، وأرجو أن تتقبلوا مني هذا الرأي ويكون عهدا فيما بيننا على ذلك". وقد كان، ولم نخرج من الدرس إلا ونحن متعاهدون على أن تكون وجهتنا التعاون وخدمة الإسلام الحنيف، والعمل له يدا واحدة، وطرح معاني الخلاف، واحتفاظ كل برأيه فيها حتى يقضي الله أمرا كان مفعولا.

واستمر درس الزاوية بعد ذلك بعيدا عن الجو الخلافي فعلا بتوفيق الله، وتخيرت بعد ذلك في كل موضوع معنى من معاني الأخوة بين المؤمنين، أجعله موضوع الحديث أولا تثبيتا لحق الإخاء في النفوس، كما أختار معنى من معاني الخلافيات، التي لم تكن محل جدل بينهم والتي هي موضع احترام الجميع وتقدير الجميع، أطرقه وأتخذ منه مثلا لتسامح السلف الصالح رضوان الله عليه، ولوجوب التسامح واحترام الآراء الخلافية فيما بيننا.

وأذكر أنني ضربت لهم مثلا علميا فقلت لهم: أيكم حنفي المذهب؟ فجاءني أحدهم فقلت: وأيكم شافعي المذهب؟ فتقدم آخر، فقلت لهم: سأصلي إماما بهذين الأخوين فكيف تصنع في قراءة الفاتحة أيها الحنفي؟ فقال: أسكت ولا أقرأ، فقلت: وأنت أيها الشافعي ما تصنع؟ فقال: أقرأ ولابد. فقلت: وإذا انتهينا من الصلاة فما رأيك أيها الشافعي في صلاة أخيك الحنفي؟ فقال: باطلة، لأنه لم يقرأ الفاتحة وهي ركن من أركان الصلاة، فقلت: وما رأيك أنت أيها الحنفي في عمل أخيك الشافعي؟ فقال: لقد أتى بمكروه تحريما، فإن قراءة الفاتحة للمأموم مكروهة تحريما. فقلت: هل ينكر أحدكما على الآخر؟ فقالا: لا، فقلت للمجتمعين: هل تنكرون على أحدهما؟ فقالوا: لا، فقلت: "يا سبحان الله! يسعكم السكوت في مثل هذا وهو أمر بطلان الصلاة أو صحتها ولا يسعكم أن تتسامحوا مع المصلي إذا قال في التشهد: اللهم صل على محمد، أو اللهم صل على سيدنا محمد، وتجعلون من ذلك خلافا تقوم له الدنيا وتقعد"، وكان لهذا الأسلوب أثره فأخذوا يعيدون النظر في موقف بعضهم من بعض، وعلموا أن دين الله أوسع وأيسر من أن يتحكم فيه عقل فرد أو جماعة، وإنما مرد كل شيء إلى الله ورسوله وجماعة المسلمين وإمامهم، إن كان لهم جماعة وإمام".

إلى الفهرس

الإمام المودودي

والإمام أبو الأعلى المودودي كانت الأولوية عنده لمحاربة "الجاهلية" الحديثة، ورد الناس إلى الدين والعبادة بمعناها الشامل، والخضوع لـ "حاكمية الله" وحده، ورفض حاكمية المخلوقين، أيا كانت منزلتهم أو وظيفتهم، مفكرين أو قادة سياسيين، وإنشاء إسلامية متميزة، ترفض فكرة الغرب في المدنية والاقتصاد والسياسة وحياة الفرد والأسرة والمجتمع، وتتخذ منهجا خاصا في الانقلاب أو التغيير، وظهر له في ذلك كتب ورسائل جمة، عبرت عن فلسفته في الدعوة إلى الإسلام وتجديده، وقامت جماعته على تبنيها ونشرها.

ماذا نعني بالحركة الإسلامية ؟

أريد بالحركة الإسلامية: ذلك العمل الشعبي الجماعي المنظم للعودة بالإسلام إلى قيادة المجتمع, وتوجيه الحياة كل الحياة.

فالحركة الإسلامية قبل كل شيء عمل, وعمل دائب متواصل، وليس مجرد

كلام يقال أو خطب ومحاضرات, أو كتب ومقالات, وإن كان هذا كله مطلوباً ولكنه جزء من حركة، وليس هو الحركة، والله تعالى يقول: (وقل اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله والمؤمنون) (التوبة : 105).
وهي عمل شعي يقوم على الانبعاث الذاتي، والاقتناع الشخصي، إيماناً واحتساباً, وابتغاء ما عند الله، لا ما عند الناس.
والأصل في هذا الانبعاث، هو هذا التوتر الذي يحس به المسلم حين تدركه الصحوة، وتمور به أعماقه، نتيجة التناقض بين إيمانه من جهة، وواقع أمته من جهة أخرى، فينطلق من حبه لدينه، ونصحه لله ولرسوله-صلى الله عليه وسلم- ولكتابه ولأمته، وشعوره بتقصيره، وتقصير الجماعة من حوله, وحرصه على أداء الواجب, واستكمال النقص، والإسهام في إحياء الفرائض المعطلة, من الحكم بشريعة الله، وتوحيد الأمة الإسلامية على كلمة الله, وموالاة أولياء الله ومعاداة أعداء الله, وتحرير الأرض الإسلامية من كل عدوان, و سيطرة غير إسلامية، وإعادة الخلافة الإسلامية الواجبة شرعا إلى القيادة من جديد وتجديد فريضة الدعوة إلى الإسلام، والأمر بالمعروف, والنهي عن المنكر, والجهاد في سبيل الله باليد أو باللسان, أو بالقلب, وذلك أضعف الإيمان, حتى تكون كلمة الله هي العليا.

الحركة عمل شعبي طوعي جماعي منظم

هذا العمل الشعبي المحتسب، هو الذي ينشيء الحركة الإسلامية, أما العمل الحكومي الرسمي, أو شبه الرسمي, مثل إنشاء مجامع أو مجالس عليا,أو اتحادات أو روابط, للشؤون الإسلامية, تشرف عليها وزارات الأوقاف, أوغيرها من الأجهزة التابعة للدولة, فقد يسهم في خدمة الإسلام وأهله بنصيب يقل أو يكثر, وفقاً لنية القائمين عليه وهمتهم, ومقدار ولائهم لدينهم, قبل ولائهم لدنياهم ودنيا من ولوهم المناصب.

ولكن هذا العمل قاصر, ومعيب دائماً من عدة أوجه:

1. أنه يدور في فلك السياسة المحلية للدولة التي تنشؤه, وتنفق عليه, فهو يتحرك أو يتوقف, ويتكلم أو صمت, ويشرق أو يغرب, تبعاً لهذه السياسة, ولهذا لا يعبر عن الإسلام الخالص, وعن أمته الكبرى, بقدر ما يعبر عن هذه الدولة المعينة.
2. أنه لا يقوم- غالباً- على أناس يفرزهم العمل, ويصهرهم الجهاد, ويبرزهم الميدان , بل على (التعيين) من رجال ترضى عنهم الدولة المنفقة, ويحرصون على إرضائها رغباً أو رهباً. ولهذا لا يسعهم أن يخالفوا عن أمرها, أو يقولوا: لم؟ أو: لا. وأنا أتحدث هنا عن الأعم الأغلب, وإلا فقد يوجد بين (الرسميين) من يفوق بعض العاملين (الشعبيين) إخلاصاً لله, وغيرة على دينه, وعملاً لتمكينه.

3. أنه كثيراً ما تنقصه النية الصادقة لنصرة الإسلام, بل قد يراد به

كسب سياسي خالص, وغالباً ما يكون هذا العمل (مسجد ضرار) ظاهره العبادة والتقوى, وباطنه التفريق بين المؤمنين, وتعويق العاملين المخلصين.

4. أنه- لهذا كله- متهم من الجماهير والشعوب، معزول عن مشاعرها وتأييدها. حتى العلماء الرسميّون الذين جندوا أنفسهم لخدمة سياسة الدولة, فينطقون إذا أرادت لهم أن ينطقوا, ويصمتون إذا أرادت أن يصمتوا - يعتقدون ثقة الجماهير بهم، ويسمونهم علماء السلطة- أو (عملاء الشرطة).

ولهذا كله لا يستطيع العمل الإسلامي الرسمي أو شبه الرسمي- في غيبة الحكم الإسلامي- أن ينشيء حركة إسلامية حقيقية, وإن كان يستطيع- بما لديه من إمكانات- أن يقوم ببعض الخدمات العلمية والعملية, وتقديم المعونات المادية والأدبية للعمل الإسلامي الشعبي ومؤسساته. وخصوما إذا كان على رأسه بعض المخلصين الشجعان.
والحركة الإسلامية - إلى جوار أنها عمل شعبي محتسب- هي عمل جماعي منظم, فلا يكفي أن يقوم أفراد محتسبون مخلصون من هنا وهناك، يعملون متناثرين للإسلام, ون كان عملهم مرصوداً لهم في ميزانهم عند الله، فإن الله لا يضيع عمل عامل من ذكر أو أنثى. وكل امرئ يجبما قدم حسب نيته وإتقانه (فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره)(الزلزلة : 7).
ولكن العمل الفردي في واقع الأمة الإسلامية المعاصرة لا يكفي لسد الثغرة , وتحقيق الأمل المرتجى. بل لا بد من عمل جماعي وهذا ما يوجبه الدين ويحتّمه الواقع .
فالدين يدعو إلى (الجماعة) ويكره (الشذوذ) فيد الله على الجماعة، ومن شذ شذ في النار, وإنما يأكل الذئب من الغنم القاصية, ولا صلاة لمنفرد خلف الصف, ولا لمتقدم على الصف, والمؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضا. والتعاون على البر والتقوى فريضة من فرائض الدين, والتواصي بالحق والصبر أحد شروط النجاة من خسران الدنيا والآخرة .
والواقع يحتم أن يكون العمل المثمر جماعياً, فاليد الواحدة لا تصفق, والمرء قليل بنفسه, كثير بإخوانه, ضعيف بمفرده, قوي بجماعته، والأعمال الكبيرة لا تتم إلا بجهود متضافرة , والمعارك الحاسمة لا يتحقق النصر فيها إلا بتضام الأيدي, وتعاضد القوى, كما قال القرآن:(إن الله يحب الذين يقاتلون في سبيله صفاً كأنهم بنيان مرصوص) (الصف :4) . ولا بد أن يكون العمل الجماعي منظماً, قائماً على قيادة مسؤولة, وقاعدة مترابطة، ومفاهيم واضحة, تحدد العلاقة بين القيادة والقاعدة , على أساس من الشورى الواجبة الملزمة, والطاعة المبصرة اللازمة. فالإسلام لا يعرف جماعة بغير نظام، حتى الجماعة الصغرى في الصلاة، تقوم على النظام، لا ينظر الله إلى الصف العوج، ولابد للصفوف أن تتراص وتتلاحم، ولا يجوز ترك ثغرة في الصف دون أن تملأ. فأي فرجة تهمل يسدها الشيطان. المنكب بجوار المنكب، والقدم بجانب القدم. وحدة في الحركة والمظهر، كما أنها وحدة في العقيدة والوجهة: (لا تختلفوا فتختلف قلوبكم). يعدل الإمام الصف خلفه حتى يستقيم ويتصل, وينصح من وراءه أن (لينوا بأيدي إخوانكم) فالجماعة تقتضي قدراً من الليونة والمرونة لموافقة سائر الصف. وبعد ذلك تكون الطاعة للإمام (إنما جعل الإمام ليؤتّم به, فإذا كبر

فكبروا, وإذا ركع فاركعوا, وإذا سجد فاسجدوا, وإذا قرأ فأنصتوا).
ولا يقبل من أحد أن يشذ عن الصف، ويسبق الإمام فيركع مثله ويجد قبله، ويحدث نشازاً في هذا البناء المنظم المتناسق. فمن فعل ذلك يخشى أن يمسخ الله رأسه رأس حمار.
ولكن هذا الإمام إذا أخطأ, فان من حق من وراءه- بل من واجبه-أن يصحح له خطأه سواء كان من غلط أم سهو, وسواء كان الخطأ في القول أم الفعل, في القراءة أم في أركان الصلاة الأخرى.
حتى إن المرأة في الصفوف البعيدة تصفق بيدها, لينتبه الإمام إلى خطئه إنها صورة مصغرة لنظام الجماعة الإسلامية, وما ينبغي أن تكون عليه العلاقة بين القيادة والجندية, فليست إمامة معصومة, ولا طاعة عمياء مطلقة.

مهمة الحركة تجديد الإسلام

ماهي مهمة الحركة الإسلامية؟

إن الحركة الإسلامية إنما قامت لتجديد الإسلام والعودة به إلى قيادة الحياة من جديد، بعد إزالة العقبات من الطريق.
و(تجديد الإسلام) ليس تعبيرا من عندي. إنه تعبير نبوي نطق به الحديث الذي رواه أبو داود والحاكم بإسناد صحيح عن أبي هريرة أن النبي-صلى الله عليه وسلم- قال: (إن الله يبعث لهذه الأمة على رأس كل مئة سنة من يجدد لها دينها).
ولقد كان اتجاه أغلب شرّاح هذا الحديث إلى أن كلمة "من" فيه تعني "فردا" واحدا معيناً يقوم بتجديد الدين, وحاولوا بالفعل تعيينه في الغالب من العلماء والأئمة الأعلام ممن تكون وفاته قريبة من رأس قرن مضى, مثل عمر بن عبد العزيز في القرن الأول (ت :105هـ) والشافعي في القرن الثاني (ت :204هـ) ثم اختلفوا كثيراً في مجدد المئة الثالثة وهكذا.
بيد أن بعضهم نظر إلى أن "من" في الحديث تصلح للجمع كما تصلح للفرد، فيجوز أن يكون المجدد جماعة لا واحدا. وهذا ما رجحه ابن الأثير في كتابه «جامع الأصول » والحافظ الذهبي وغيرهما..
وأزيد على هذا أمراً آخر فأقول: ليس من الضروري أن يكون المجدد جماعة بمعنى عدد من الأفراد هم فلان وفلان وفلان ... بل جماعة بمعنى مدرسة وحركة فكرية وعملية تقوم بتجديد الدين متضامنة.
وهكذا ما أرجحه في فهم هذا الحديث الشريف, وتطبيقه على قرننا هذا الذي ودعناه لنستقبل قرناً جديداً, نسأل الله أن يجعل يومنا فيه خيراً من أمسنا, وغدنا خيراً من يومنا.

بماذا يكون التجديد المنشود؟

والتجديد الذي يجب أن تقوم به الحركة الإسلامية ينبغي أن يتجسد في ثلاثة أمور:
الأول: تكوين طليعة إسلامية, قادرة -بالتكامل والتعاون- على قيادة المجتمع المعاصر بالإسلام, دون تقوقع ولا تحلل, وعلى علاج أدواء المسلمين من صيدلية الإسلام نفسه، طليعة يجمع بين أفرادها: الإيمان العميق، والفقه الدقيق, والترابط الوثيق.

والثاني: تكوين رأي عام إسلامي يمثل القاعد ة الجماهيرية العريضة التي تقف وراء الدعاة إلى الإسلام, تحبهم وتساندهم، وتشد أزرهم, بعد أن وعت مجمل أهدافهم، ووثقت بإخلاصهم وقدرتهم، ونفضت عنها غبار التشويش والتشويه للإسلام ورجاله وحركاته.

والثالث: تهيئة مناخ عام عالمي كذلك يتقبل وجود الأمة الإسلامية، حين يفهم حقيقة الرسالة الإسلامية, والحضارة الإسلامية, ويحرر من العقد الخبيثة, التي تركها تعصب القرون الوسطى, في أعماق نفسه, ومن الأباطيل التي خلفها الكذب والتشويه في أم رأسه, رأي عام يفسح صدره لظهور القوة الإسلامية بجوار القوى العالمية الأخرى, مدركا أن من حق المسلمين أن يحكموا أنفسهم وفق عقيدتهم, باعتبارهم أغلبية في بلادهم, كما تنادي بذلك مبادئهم الديموقراطية الحية التي يتغنون بها, وأن من حقهم أن يدعوا إلى رسالتهم الإنسانية العالمية, باعتبارها إحدى الأيديولوجيات الكبرى في العالم التي لها ماض وحاضر ومستقبل, ويدين بها أكثر من ألف مليون في دنيانا التي نعيش فيها.

أولويات الحركة الإسلامية

تعدد مجالات العمل:

إن مجالات العمل أمام الحركة الإسلامية في المرحلة القادمة, مجالات رحبة فسيحة، وعلى قادة الحركة العمليين، ومنظريها الفكريين, أن يدرسوا هذه المجالات بأناة دراسة علمية قائمة على الإحصاءات والبيانات الموثقة والمؤكدة .

هناك مجال العمل التربوي.

لتكوين (الإطارات) البشرية، والطلائع الإسلامية, وتربية جيل النصر المنشود من الذين يفهمون الإسلام ويؤمنون به كله: علماً وعملاً ودعوة وجهاداً ويحملون دعوة الإسلام إلى أمتهم أولا، وإلى العالم بعد ذلك, بعد أن التزموا به: فكرة واضحة في رؤوسهم, وعقيدة راسخة في قلوبهم, وخلقًا

يوجه كل حياتهم، وعبادة مع الله وتعاملاً مع الناس، ومنهاجاً حضارياً ينهض بالأمة، ويوحدها على كلمة الله, ويهدي الإنسانية الحائرة للتي هي أقوم.

وهناك العمل السياسي:

لاستخلاص الحكم من أيدي الضعفاء والخزنة ليوضع في أيدي الأقوياء الأمناء الذين لا يريدون علوّاً في الأرض ولا فساداً, والذين إن مكنهم الله في الأرض أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر.

وهناك العمل الاجتماعي:

للإسهام في علاج الفقر والجهل والمرض والرذيلة, والوقوف في وجه المؤسسات المشبوهة التي تجعل من العمل الاجتماعي والخيري أداة لتغيير هوية الأمة وارتباطها بعقيدتها.

وهناك العمل الاقتصادي:

للمشاركة في تنمية المجتمع, وتخليصه من التبعية والغرق ني الديون الربويّة والعمل لإيجاد مؤسسات اقتصادية إسلامية.

وهناك العمل الجهادي:

تحرير الأرض الإسلامية، ومقاومة القوى المعادية للدعوة الإسلامية والأمة الإسلامية والمحافظة على حرية الإرادة الإسلامية، واستقلال القرار الإسلامي

وهناك العمل الدعوي والإعلامي:

لنشر الفكرة الإسلامية وشرح تعاليم الإسلام شرحاً يردها إلى وسطيتها وشمولها, وإزاحة الغموض, ورد الشبهات والمفتريات عنها, بالكلمة المقروءة والمسموعة والمرئية, وبكل الوسائل السمعية والبصرية المعينة.

وهناك العمل الفكري والعلمي:

لتصحيح التصوّر عن الإسلام عند المسلمين وغير المسلمين, وتصحيح المفاهيم المغلوطة والفتاوى القاصرة التي شاعت عند فصائل من الإسلاميين أنفسهم وإيجاد فقه ناضج بصير للحركة الإسلامية, قائم على تأصيل شرعي مستمد من نصوص الشريعة ومقاصدها, وخصوصاً لدى النخبة من المثقفين المسلمين الذين لم يتح لهم أن يعرفوا الإسلام معرفة صحيحة .

توزيع القوى على مجالات العمل:

ورأيي أن هذه المجالات كلها مطلوبة, ولا ينبغي أن يهمل جانب منها, أو

يؤجل، وإنما الواجب هو توزيع القوى والكفايات على كل منها, وفق حاجات هذه المجالات من ناحية, ووفق ما عندنا من قدرات من ناحية أخرى.
والقرآن الكريم أنكر على المسلمين في عهد النبوة أن يتوجهوا جميعا إلى ساحة الجهاد- وما أقدسها من ساحة !- مغفلين ساحة أخرى لا تقل قداسة عن الجهاد, وربما زادت عليه في بعض الأحيان, لأنها هي التي تهيء له وتذكر به وتحذر من إضاعته وهي ساحة التفقه في الدين.
يقول الله تعالى في سورة التوبة وهي السورة التي نددت بالمتخلفين عن الجهاد وأنذرت المتثاقلين بأبلغ النذر(وما كان المؤمنون لينفروا كافة فلولا نفر من كل فرقة منهم طائفة ليتفقهوا في الدين، ولينذروا قومهم إذا رجعوا إليهم لعلهم يحذرون) (سورة التوبة : 122) .
فهذه دعوة قوية إلى التخصص، وتوزيع القوى على مجالات الحاجة.

ما ينبغي التركيز والبدء به:

ولكن الذي ينبغي أن تركز عليه الحركة هنا عدة أمور لها أهميتها الخاصة في المرحلة القادمة في ضوء (فقه الأولويات) المشار إليه.

1. التركيز على مفاهيم معينة يجب تجليتها وتعميمها وتعميقها في المجال الفكري وهو ما أسميناه (الفقه الجديد).
2. التركيز على شرائح اجتماعية معينة يجب أن تمتد إليها الحركة, وتشملها الصحوة وذلك في المجال الدعوي.

3. التركيز على مستوى كيفي معين من إعداد القيادات المرجوّة للمستقبل, ولا سيما الإعداد الإيماني والفكري, وذلك ي المجال التربوي.

4. التركيز على تطوير الأفكار والممارسات فيما يتصل بالعلاقات السياسية المحلية والعالمية خروجا من التقوقع الداخلي, والحصار الخارجي, وتحقيقاً لعالمية الحركة ومرونتها, وذلك في المجال السياسي.

وسنفرد كلاً من هذه. المجالات الأربعة بحديث...

الشهيد سيد قطب

والشهيد سيد قطب كانت الأولوية عنده للعقيدة قبل النظام، ولتحقيق "حاكمية الله" في الأرض، وهو ما كرره وأكده غاية التأكيد في كتبه الأخيرة وبخاصة "الظلال"، وقد زعم بعض الناس أن فكرة "الحاكمية" فكرة مودودية قطبية! وهذا جهل وغلط، فهذا أمرا اتفق عليه الأصوليون وصرحوا به في مبحث "الحكم" من علم "أصول الفقه": أن الحاكم هو الله، لا حاكم غيره، وأن

الرسول الكريم مبلغ عنه. ومن عناصر التوحيد التي ذكرها القرآن: (أفغير الله أبتغي حكما وهو الذي أنزل إليكم الكتاب مفصلا).

كما عنى الشهيد رحمه الله بتصحيح "التصور الاعتقادي" للإسلام، إذ لا يمكن أن يصلح عمل ناشئ عن تصور فاسد أو سقيم، فمتى يستقيم الظل والعود أعوج؟

ومن ذلك: رفض الجاهلية المعاصرة في كل مجالاتها: في العقيدة أو الفكر أو السلوك، في حياة الفرد أو الأسرة أو المجتمع، واعتبار كل المجتمعات القائمة في أقطار العالم ـ ومنها الأقطار الإسلامية ـ مجتمعات جاهلية، لأنها ترفض حاكمية الله، وهو يعني الحاكمية التي يرجع إليها في تحديد الشرائع والقوانين، ووضع القيم والموازين، أو الضوابط والمفاهيم، التي على أساسها تسير الحياة والمجتمع. فكل تحكيم لغير الله في تلك الشؤون إنما هو اغتصاب لحق الله تعالى في التشريع لخلقه.

هذا الأمر الكلي يجب أن يكون له الأولوية على غيره، وأن يقدم على كل الجزئيات والفرعيات التي يتحمس لها بعض الطيبين من المسلمين، مثل النهي عن جزئيات المنكرات، مع الغفلة عن المنكر الأكبر، الذي أسس عليه المجتمع.

وأود أن أنقل هنا نصا من تفسير "الظلال" يعلق به على ما ذكره القرآن عن بني إسرائيل: (كانوا لا يتناهون عن منكر فعلوه، لبئس ما كانوا يفعلون)، يقول رحمه الله:

"إن الجهد الأصيل، والتضحيات النبيلة يجب أن تتجه أولا إلى إقامة المجتمع الخير، والمجتمع الخير هو الذي يقوم على منهج الله، قبل أن ينصرف الجهد والبذل والتضحية إلى إصلاحات جزئية، شخصية وفردية، عن طريق الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

إنه لا جدوى من المحاولات الجزئية حين يفسد المجتمع كله، وحين تطغى الجاهلية، وحين يقوم المجتمع على غير منهج الله، وحين يتخذ له شريعة غير شريعة الله. فينبغي عندئذ أن تبدأ المحاولة من الأساس، وأن تنبت من الجذور، وأن يكون الجهد والجهاد لتقرير سلطان الله في الأرض، وحين يستقر هذا السلطان يصبح الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر شيئا يرتكن إلى أساس.

وهذا يحتاج إلى إيمان، وإلى إدراك لحقيقة هذا الإيمان ومجاله في نظام الحياة. فالإيمان على هذا المستوى هو الذي يجعل الاعتماد كله على الله، والثقة كلها بنصرته للخير ـ مهما طال الطريق ـ واحتساب الأجر عنده، فلا ينتظر من ينهض لهذه المهمة جزاء في هذه الأرض، ولا تقديرا من المجتمع الضال، ولا نصرة من أهل الجاهلية في أي مكان!

إن كل النصوص القرآنية والنبوية التي ورد فيها الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر كانت تتحدث عن واجب المسلم في مجتمع مسلم، مجتمع يعترف ابتداء بسلطان الله، ويتحاكم إلى شريعته، مهما وجد فيه من طغيان الحكم في بعض الأحيان، ومن شيوع الإثم في بعض الأحيان، وهكذا نجد في قول الرسول صلى الله عليه وسلم: "أفضل الجهاد كلمة حق عند إمام جائر" فهو "إمام" ولا يكون إماما حتى يعترف ابتداء بسلطان الله، وبتحكيم شريعته. فالذي لا يحكم شريعة الله لا يقال له: "إمام" إنما يقول عنه الله سبحانه وتعالى: (ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون).

فأما المجتمعات الجاهلية التي لا تتحاكم إلى شريعة الله، فالمنكر الأكبر فيها والأهم، هو المنكر الذي تنبع منه كل المنكرات، هو رفض ألوهية الله برفض شريعته للحياة، وهذا المنكر الكبير الأساسي الجذري هو الذي يجب أن يتجه إليه الإنكار، قبل الدخول في المنكرات الجزئية، التي هي تبع لهذا المنكر الأكبر، وفرع عنه، وعرض له.

إنه لا جدوى من ضياع الجهد، جهد الخيرين الصالحين من الناس في مقاومة المنكرات الجزئية، الناشئة بطبيعتها من المنكر الأول، منكر الجرأة على الله وادعاء خصائص الألوهية، ورفض ألوهية الله، برفض شريعته للحياة، لا جدوى من ضياع الجهد في مقاومة منكرات هي مقتضيات ذلك المنكر الأول وثمراته النكدة بلا جدال.

على أنه إلام نحاكم الناس في أمر ما يرتكبونه من منكرات؟ بأي ميزان نزن أعمالهم لنقول لهم: إن هذا منكر فاجتنبوه؟ أنت تقول: إن هذا منكر، فيطلع عليك عشرة من هنا ومن هناك يقولون لك: كلا! ليس هذا منكرا. لقد كان مفكرا في الزمان الخالي! والدنيا "تتطور"، والمجتمع "يتقدم"، وتختلف الاعتبارات!

فلابد إذن من ميزان ثابت نرجع إليه بالأعمال، ولابد من قيم معترف بها نقيس إليها المعروف والمنكر، فمن أين نستمد هذه القيم؟ ومن أين نأتي بهذا الميزان؟

من تقديرات الناس وعرفهم وأهوائهم وشهواتهم ـ وهي متقلبة لا تثبت على حال؟ إننا ننتهي إذن إلى متاهة لا دليل فيها، وإلى خضم لا معالم فيه!

فلابد من ميزان ثابت نرجع إليه الأعمال، ولابد من قيم معترف بها نقيس إليها المعروف والمنكر، فمن أين نستمد هذه القيم؟ ومن أين نأتي بهذا الميزان؟

من تقديرات الناس وعرفهم وأهوائهم وشهواتهم ـ وهي متقلبة لا تثبت على حال؟ إننا ننتهي إذن إلى متاهة لا دليل فيها، وإلى خضم لا معالم فيه!

فلابد ابتداء من إقامة الميزان، ولابد أن يكون هذا الميزان ثابتا لا يتأرجح مع الأهواء.

هذا الميزان الثابت هو ميزان الله.

فماذا إذا كان المجتمع لا يعترف ـ ابتداء ـ بسلطان الله؟ ماذا إذا كان لا يتحاكم إلى شريعة الله؟ بل ماذا إذا كان يسخر ويهزأ ويستنكر وينكل بمن يدعوه إلى منهج الله؟

ألا يكون جهدا ضائعا، وعبثا هازلا، أن تقوم في مثل هذا المجتمع لتأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر، في جزئيات وجانبيات من شئون الحياة، تختلف عليها الموازين والقيم، وتتعارض فيها الآراء والأهواء؟!

إنه لابد من الاتفاق مبدئيا على حكم، وعلى ميزان، وعلى سلطان، وعلى جهة يرجع إليها المختلفون في الآراء والأهواء.

لابد من الأمر بالمعروف الأكبر وهو الاعتراف بسلطان الله ومنهجه للحياة. والنهي عن المنكر الأكبر وهو رفض ألوهية الله برفض شريعته للحياة، وبعد إقامة الأساس يمكن أن يقام البنيان! فلتوفر الجهود المبعثرة إذن، ولتحشد كلها في جبهة واحدة، لإقامة الأساس الذي عليه وحده قيام البنيان!

وإن الإنسان ليرثي أحيانا ويعجب لأناس طيبين، ينفقون جهدهم في "الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر" في الفروع، بينما الأصل الذي تقوم عليه حياة المجتمع المسلم، ويقوم عليه الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، مقطوع!

فما غناء أن تنهى الناس عن أكل الحرام مثلا في مجتمع يقوم اقتصاده كله على الربا، فيستحيل ماله كله حراما، ولا يملك فرد فيه أن يأكل من حلال، لأن نظامه الاجتماعي والاقتصادي كله لا يقوم على شريعة الله، لأنه ابتداء يرفض ألوهية الله برفض شريعته للحياة؟!

وما غناء أن تنهى الناس عن الفسق مثلا في مجتمع قانونه لا يعتبر الزنا جريمة ـ إلا في حالة الإكراه ـ ولا يعاقب حتى في حالة الإكراه بشريعة الله .. لأنه ابتداء يرفض ألوهية الله برفض شريعته للحياة؟!

وما عناء أن تنهى الناس عن السكر في مجتمع قانونه يبيح تداول وشرب الخمر، ولا يعاقب إلا على حالة السكر البين في الطريق العام. وحتى هذه لا يعاقب فيها بحد الله، لأنه لا يعترف ابتداء بحاكمية الله؟!

وما غناء أن تنهى الناس عن سب الدين، في مجتمع لا يعترف بسلطان الله، ولا يعبد فيه الله، إنما هو يتخذ أربابا من دونه، ينزلون له شريعته وقانونه، ونظامه وأوضاعه، وقيمه وموازينه، والساب والمسبوب كلاهما ليس في دين الله، إنما هما وأهل مجتمعهما طراً في دين من ينزلون لهم الشرائع والقوانين، ويضعون لهم القيم والموازين؟!

ما غناء الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في مثل هذه الأحوال؟ ما غناء النهي عن هذه الكبائر ـ فضلا عن أن يكون النهي عن الصغائر ـ والكبيرة الكبرى لا نهي عنها، كبيرة الكفر بالله، برفض منهجه للحياة؟!

إن الأمر أكبر وأوسع وأعمق، مما ينفق فيه هؤلاء "الطيبون" جهدهم وطاقتهم واهتمامهم، إنه ـ في هذه المرحلة ـ ليس أمر تتبع الفرعيات مهما تكن ضخمة حتى ولو كانت هي حدود الله، فحدود الله تقوم ابتداء على الاعتراف بحاكمية الله دون سواه، فإذا لم يصبح هذا الاعتراف حقيقة واقعة، تتمثل في اعتبار شريعة الله هي المصدر الوحيد للتشريع، واعتبار ربوبية الله وقوامته هي المصدر الوحيد للسلطة، فكل جهد في الفروع ضائع، وكل محاولة في الفروع عبث، والمنكر الأكبر أحق بالجهد والمحاولة من سائر المنكرات".

إلى الفهرس

الأستاذ محمد المبارك

وممن تنبه إلى فقه الأولويات من رجال الإصلاح والتجديد: المفكر الإسلامي السوري المعروف الأستاذ محمد مبارك رحمه الله، فقد تحدث عن جانب مهم من هذا الأمر حديثا عميقا، في كتابه "الفكر الإسلامي الحديث في مواجهة الأفكار الغربية"، وهو في الواقع مجموع أبحاث أو محاضرات كتبها أو ألقاها في مناسبات مختلفة.

في هذا الكتاب تحدث عن "ضبط النسب في الإسلام"، وأنا أنقل ما كتبه بنصه لأهميته:

"وإلى جانب خاصة الوحدة في نظام الإسلام خاصة أخرى لا تقل عنها شأنا وهي ضبط النسب بين جوانب الحياة وقيمها، فالمال واللذة والعمل والعقل والمعرفة والقوة والعبادة والقرابة والقومية والإنسانية قيم من قيم الحياة، والإسلام جعل لكل منها موضعا في نظام الحياة ونسبة محدودة لا تتجاوزها، حتى لا تطغى قيمة على قيمة.

وإن من التشويه للإسلام تبديل هذه النسب بحيث تزاد عن حدها أو تنقص بالنسبة إلى غيرها، كما حدث فعلا في بعض العصور الأخيرة، فإن تغيير النسب في نظام الحياة كتغير النسب في التصوير الهزلي، الذي يعطي من الإنسان المعالم والمشابه، ولكن على وجه هزلي ساخر، وكتغيير النسب في أجزاء الدواء، فقد يؤدي إلى إفساده، وتغيير صفاته وخصائصه، وربما انقلب إلى مادة ضارة أو سامة.

فلو جعلنا الحياة مئة جزء لوجدنا أن الإسلام خص العبادة منها بأجزاء، وكذلك الإنفاق والكسب، والجهاد، والتمتع باللذات المشروعة لكل منها نصيب محدود. ولو غيرنا هذه النسب فقللنا قيمة الجهاد، وزدنا في نصيب العبادة، وانتقصنا من حظ المال كسبا أو إنفاقا، وغالينا في الملذات أو ألغيناها، لخرجنا من ذلك بنظام يخالف في حقيقته وفي روحه نظام الإسلام، وأخللنا بالتوازن الذي أقامه بين قيم الحياة وجوانبها.

فالمسلم الكامل في بعض العصور الأخيرة هو المنصرف إلى العبادة بمعناها الضيق لا يشتغل بسواها، المعتكف في محرابه لا يبارحه، الملتزم لأذكاره وأوراده. إن هذه الصورة لا تشبه مطلقا الصورة التي كان عليها الرسول الكريم صلوات الله وسلامه عليه وأصحابه المقتدون به، فلئن كانت العبادة جزءا أساسيا في حياتهم، فإن الجهاد كان مالئا لصفحاتهما، الجهاد في سبيل تحرير المجتمع من العقائد الفاسدة، وترسيخ العقائد الصحيحة، وتحريره من ظلم الظالمين، واستبداد المستبدين، لحماية المستضعفين، وإقامة العدل بين الناس. وكذلك تكون حياة المسلم المنشغل بالجهاد والإصلاح الاجتماعي ناقصة مشوهة بالقياس إلى الصورة الإسلامية الكاملة إذا كانت خالية من العبادة ضعيفة الصلة بالله.

وقد انتبه فقهاؤنا المتقدمون إلى هذه الفكرة فكرة النسب، فجعلوا ما يطلب من المسلم من الفرائض وغيرها متفاوتة في قوة طلبها، كما جعلوا الممنوعات المحرمات مختلفة كذلك في درجة منعها أو حرمتها. فليس سواء في الإثم ترك المجاهد المرابط في صف الجهاد مكانه وفسحه المجال لدخول العدو، وشرب الخمر أو أكل لحم الخنزير، مع أن كلا الأمرين حرام. وتشير آيات وأحاديث كثيرة إلى هذه الفكرة كقوله تعالى: (أجعلتم سقاية الحاج وعمارة المسجد الحرام كمن آمن بالله وباليوم الآخر وجاهد في سبيل الله، لا يستوون عند الله) وكقول الرسول صلى الله عليه وسلم حين سئل ما يعدل الجهاد في سبيل الله؟ وأعادوا عليه مرتين أو ثلاثا وهو يقول: "لا تستطيعونه" ثم قال: "مثل المجاهد في سبيل الله كمثل الصائم القانت بآيات الله لا يفتر من صيام ولا صلاة حتى يرجع المجاهد".

وفي الصحاح: قيل: يا رسول الله، أي الناس أفضل؟ قال: "مؤمن مجاهد بنفسه وماله في سبيل الله"، قيل: ثم من؟ قال: "رجل شعب من الشعاب يتقي الله ويدع الناس من شره".

وروى الإمام أحمد بسند صحيح قول الرسول صلى الله عليه وسلم: "درهم ربا يأكله الرجل وهو يعلم أشد من ستة وثلاثين زنية". فالربا وهو من أنواع الظلم المالي أشد حرمة من الزنى.

ولو حاولنا أن نجمع أمثال هذه الأحاديث التي تقدر القيم بعضها بالنسبة إلى بعض لخرجنا منها بنسب رياضية بين قيم الحياة، كقوله عليه الصلاة والسلام: "يوم من إمام عادل أفضل من عبادة ستين سنة"، وقوله: "فضل العالم على العابد كفضلي على أدناكم"، وقوله: "فقيه واحد أشد على الشيطان من ألف عابد".

ومن هنا يتبين خطأ من يصرفون همهم إلى أمر قد يكون في ذاته مطلوبا أو ممنوعا في الإسلام، ولكن في مقابلة أمر أخطر منه بكثير، فالبلاد الإسلامية مبتلاة في هذا العصر بخطرين عظيمين هما: الاستعمار والإلحاد، أي الاستيلاء على الأرض والاستيلاء على العقيدة، أي إتلاف ثرواتها المادية والمعنوية وسلبها. ولو تم الاستيلاء على البلاد وتهديم العقيدة واستمر، لما أمكن إقامة شعائر الدين، ولا القيام بأوامره، وتطبيق أحكامه. ولذلك فإن صرف أذهان الناس إلى قضايا أخرى وجعلها محور النضال الإسلامي إلهاء عن القضايا الأساسية التي هي الاستيلاء على البلاد الإسلامية أو السيطرة عليها بطريقة مباشرة أو غير مباشرة، وتهديم العقيدة الإسلامية بشتى الأساليب، ونشر الأفكار والمذاهب الإلحادية على اختلاف صورها. فهل يجوز في مثل هذه الحال تقسيم المسلمين إلى من يقولون بأن التراويح ثمانية ومن يقولون بأنها عشرون؟! وإلى القائلين بتكرار الجماعة أو عدمها؟ أو احتدام معركة السنة والبدعة في أمور لا تمس العقيدة؟!

أنا لا أقول أن لا تبحث هذه الأمور بحثا عمليا، بل أقول: إنه يجب التنبيه حينما يكون الأمر ماسا بالعقيدة، ويحسن التنبيه إلى الطريقة الصحيحة في العبادات، لأن العبادات توقيفية فلا زيادة ولا نقصان فيها عما أمر به النبي صلوات الله عليه أو فعله. ومع ذلك فإذا كان يحدث فتنة أو يحدث خصومة وعداوة بين فئتين من المسلمين وجب ترك ذلك لما يترتب عليه من منكر أعظم ولما ينشأ عنه من تقسيم المسلمين إلى فئات متعددة في ظروف وأحوال لا يجوز فيها تفتيت القوى، ولا الاشتغال إلا بالقضايا الأساسية الكبرى".

إلى الفهرس

ممن عنى بفقه الأولويات نظرا وفكرا وشرحا: الداعية الكبير الشيخ محمد الغزالي حفظه الله ورعاه، فقد أولى هذا الأمر عناية فائقة في كتبه، ولا سيما الأخيرة منها، وذلك لما لمسه وعاناه في رحلته الدعوية من أناس ينتمون إلى الإسلام، وإلى الدعوة، ولكنهم قلبوا شجرة الإسلام، فجعلوا جذوعها الأصلية فروعا خفيفة، وجعلوا فروعها أوراقا تعبث بها الرياح، في حين جعلوا الأوراق هي الجذوع، التي ينبغي أن يتوجه إليها كل الفكر، وكل الاهتمام، وكل العمل.

وأكتفي في هذا المقام بأن أنقل نصا عن الشيخ يبين مبلغ فهمه ووعيه بفقه الأولويات، وعنايته بترسيخه، وإنشاء النظرة الشمولية المتوازنة للإسلام، والتي تعطي كل شيء حقه، وتنزله منزلته. يقول شيخنا سدده الله في بحثه عن أسباب انهيار الحضارة الإسلامية، وتخلف الأمة الإسلامية، بعد أن كانت الأمة الأولى، وتحت عنوان "التصوير الجزئي للإسلام" في كتابه "الدعوة الإسلامية تستقبل قرنها الخامس عشر":

"الإيمان بضع وستون أو بضع وسبعون شعبة، هل هذه الشعب مركوم بعضها فوق البعض كيفما اتفق؟ هل هي كسلع اشتراها شخص من السوق ثم وضعها في حقيبته كيفما تيسر؟ لا إنها شعب متفاوتة الخطر والقيمة ولكل منها وضع عتيد في الصورة الجامعة لا يعدوه.

والشبكة التي تكون شعب الإيمان كلها تشبه الخارطة الموضوعة للجهاز العامل في إحدى الوزارات أو إحدى المؤسسات، هناك مديرون، وهناك مساعدون، وهناك فعلة، وهناك مراقبون، وبين هذه وتلك علاقات مرسومة ونظم إرسال واستقبال وتنفيذ وإنتاج.

إن شعب الإيمان التي تعد بالعشرات تشبه السيارة المنطلقة لها هيكل وإطارات وقيادة ووقود وكوابح ومصابيح وكراسي وغير ذلك، وكل منها له وظيفته وقيمته.

ومنذ بدأت الثقافة الإسلامية والإيمان أركان ونوافل، وأصول وفروع، وأعمال قلبية وأعمال جسمية!

والذي يحدث عند بعض الناس أن جزءا ما من الإسلام يمتد على حساب بقية الأجزاء كما تمتد الأورام الخبيثة على حساب بقية الخلايا فيهلك الجسم كله.

وقد كان الخوارج أول من أصيب بهذا القصور العقلي أو بهذا الخلل الفقهي قاتلوا عليا أو يتبرأ من التحكيم، وقاتلوا عمر بن العزيز أو يلعن آباءه ملوك أمية.

وسيطرة فكرة معينة على الإنسان بحيث تملأ فراغه النفسي كله، ولا تدع مكانا لمعان أخرى شيء لا يستساغ.

لقيني رجل من المعروفين بالطيبة وسألني هل تؤمن بكرامات الشيخ فلان؟ قلت: لم أقرأ سيرة هذا الشيخ قال: إليك كتابا يشرح سيرته، ثم لقيني بعد فترة وسألني ما رأيك؟ قلت: نسيت أن أقرأ الكتاب، قال: كيف؟ ـ بانفعال ـ قلت: الأمر غير مهم، إذا مت وأنا لا أعرف صاحبك فإن الله غير سائلي عنه وعن كراماته، فانطلق يشيع عني أني مارق لا أؤمن بالكرامات!!

وقابلني آخر يقول: ما رأيك في الموسيقى؟ فأجبت: إن كانت عسكرية تثير الحماس والتضحية فلا بأس، وإن كانت عاطفية تثير النشاط أو الرقة فلا بأس، وإن كانت تثير العبث والمجون فلا، فانطلق يشيع عني أني متحلل أسمع الحرام!!

كلا الشخصين آمن بشيء حسبه الدين كله، فهو يحاكم الأشخاص والأوضاع إليه وحده.

وهذا "التورم" الذي يصيب جانبا دينيا معينا هو السر وراء فقهاء لهم فكر ثاقب، وليست لهم قلوب العابدين، ومتصوفين لهم مشاعر ملتاعة، وليست لهم عقول الفقهاء.

وهو السر وراء محدثين يحفظون النصوص، ولا يضعونها مواضعها ولا يجيدون الاستنباط منها.

وأصحاب رأي يلمحون المصلحة، ولا يحسنون مساندتها بالنص المحفوظ.

وهو السر وراء حكام يعملون ـ حسب المواصفات المقررة ـ رعاة للجماهير، وباعهم في تقوى الله قصير، وعامة يعكفون على العبادات الفردية، فإذا بلغ الأمر النصح والزجر والأمر والنهي والعرض لغضب الحكام لاذوا بالصمت الطويل!

وهو السر وراء أناس يتقنون مراسم العبادة، ولا يفرطون ذرة في صورة الطاعات الواردة، ومع ذلك لا يعون من حكمتها شيئا، ولا يستفيدون منها خلقا.

الصلاة تورث النظام والنظافة، وهم فوضى شعثون.

والحج رحلة العمر التي تعمر القلب والجوارح بالسكينة والرحمة، وهم في أثناء المناسك وبعدها قساة سيئون.

إن الدعوة الإسلامية تحصد الشوك من أناس قليلي الفقه، كثيري النشاط، ينطلقون بعقولهم الكليلة، فيسيئون ولا يحسنون.

ماذا يفيده الإسلام من شبان يغشون المجتمعات الأوروبية والأمريكية، يلبسون جلاليب بيضاء، ويجلسون على الأرض، ليتناولوا الطعام بأيديهم ثم يلعقون أطراف أصابعهم، وهذا ـ في

نظرهم ـ هدي الرسول في الأكل، والسنة التي يبدءون ـ من عندها ـ عرض الإسلام على الغربيين؟

هل هذه آداب الإسلام في الطعام؟

وعندما يرى الأوربيون رجلا يبغي الشرب فيتناول الكأس، ثم يقعد ـ وكان واقفا ـ ليتبع السنة في الشرب، فهل هذا المنظر الغريب هو الذي يغري بدخول الإسلام؟

لماذا تجسم التوافه على نحو يصد عن سبيل الله، ويبرز الإسلام به وكأنه دين دميم الوجه؟

ثم إن الدعوة إلى الإسلام لا يقبل فيها عرض القضايا الخلافية مهما كانت مهمة عند أصحابها، والأكل على الأرض أو بالأيدي مسألة عادية وليست عبادية، ومن السماجة عرض الإسلام من خلالها، ووضع النقاب على وجه المرأة أمر تناوله الأخذ والرد، ولا يسوغ بحال تقديمه عند عرض دين الله على عباد الله.

وتدبر هذا الحديث الذي رواه البخاري في أسلوب عرض الرسالة الإسلامية كما أحكمه رب العزة، عن يوسف بن ماهك قال: إني عند عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها إذ جاءها عراقي فقال: أي الكفن خير؟ قالت: ويحك! وما يضرك؟ قال: يا أم المؤمنين أريني مصحفك! قالت: لم؟ قال: لعلي أؤلف القرآن عليه، فإنه يقرأ غير مؤلف. قالت: وما يضرك أيه قرأت قبله؟ إنما نزل أول ما نزل منه: سورة من المفصل فيها ذكر الجنة والنار، حتى إذا ثاب الناس إلى الإسلام نزل الحلال والحرام، ولو نزل أول شيء: لا تشربوا الخمر، لقالوا: لا ندع الخمر أبدا، ولو نزل: لا تزنوا، لقالوا: لا ندع الزنا أبدا، لقد نزل بمكة على محمد صلى الله عليه وسلم وإني لجارية ألعب: (بل الساعة موعدهم والساعة أدهى وأمر)، وما نزلت سورة البقرة والنساء إلا وأنا عنده قال: فأخرجت له المصحف فأملت عليه (أي السورة).

لكن أناسا يشتغلون بالدعوة لا فقه لهم ولا دراية، يسيئون إلى هذا الدين ولا يحسنون، وفيهم من يمزج قصوره بالاستعلاء ولمز الآخرين.

وقد تطور هذا القصور فرأيت بين أشباه المتعلمين ناسا يتصورون الإسلام يحد من جهاته الأربع بلحية في وجه الرجل، ونقاب على وجه المرأة، ورفض للتصوير ولو على ورقة، ورفض للغناء والموسيقى ولو في مناسبات شريفة وبكلمات لطيفة!

ولا أريد تقرير حكم معين في أشباه هذه الأمور، وإنما أريد ألا تعدو قدرها، وألا يظنها أصحابها ذروة الدين وسنامه، وهي شئون فرعية محدودة، يعتبر القتال من أجلها قضاء على الإسلام وتمزيقا لأمته".

وهذه الدراسة عن فقه الأولويات: تأصيل وتكميل وتفصيل لما دعا إليه هؤلاء المصلحون الأعلام، أرجو أن تسد ثغرة في الفكر الإسلامي المعاصر. والحمد لله أولا وآخرا.

(ربنا لا تؤاخذنا إن نسينا أو أخطأنا، ربنا ولا تحمل علينا إصرا كما حملته على الذين من قبلنا، ربنا ولا تحملنا ما لا طاقة لنا به، واعف عنا واغفر لنا وارحمنا، أنت مولانا فانصرنا على القوم الكافرين).